Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

" ولذكر الله أكبر "

دراسة فى بعض أبعاد الذكر والفكر فى الكتاب والسنة

أ . د . محسن إبراهيم عبد المجيد اللبان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د . محسن إبراهيم عبد المجيد اللبان

" ولذكر الله أكبر "

دراسة فى بعض أبعاد الذكر والفكر فى الكتاب والسنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظ للناشر
١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م

يطلب من الناشر **لواء الحمد** للإعلام والنشر - ١٣ ش بورسعيد الشاطبى
الإسكندرية - ت /٥٩٦٤٤٠٣ جمهورية مصر العربية

اهداءات ٢٠٠١

أ.د أحمد أبو زيد

أنثروبولوجى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
خاتم النبيين و آله وصحبه وسلم

"يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكراً كَثِيراً
وَسَبِّحُوهُ بُكرَةً وَأَصِيلاً هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيكُم
وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور
وَكَانَ بِالمُؤمِنِينَ رَحِيما تَحِيَّتُهُم يَومَ يَلقَونَهُ
سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُم أَجراً كَرِيماً "

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُلهِكُم أَموَالُكُم وَلا
أَولَادُكُم عَن ذِكرِ اللَّهِ ، وَمَن يَفعَل ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ "

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرست المحتويات

صفحة

* تنويه هام ..... ج

* تمهيد ..... د

الباب الأول

بعض المفاهيم الأساسية

الفصل الأول : الذكر فى مبانى الإسلام وأركانه

: الذكر فى مبانى الصلاة ٥
: الذكر فى مبانى الزكاة ١٦
: الذكر فى مبانى الصيام ١٨
: الذكر فى مبانى الحج ١٩
: الذكر فى مبانى الشهادتين ٢١
: خلاصة القول فى هذا الفصل ٢٦

الفصل الثانى : هل الذكر جماع العبادات وأفضلها

أولاً : الذكر أفضل العبادات ٣٠
ثانياً : ولذكر الله أكبر ٣٨
ثالثاً : الذكر جماع العبادات ٤٠
رابعاً : خلاصة القول فى هذا الفصل ٤٢

الفصل الثالث : مركزية الذكر والفكر فى الإسلام

أولاً : الطبيعة العامة للذكر ٤٧
ثانياً : ماهية الذكر ٥٦
ثالثاً : الذكر والفكر ٦٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفحة

الفصل الرابع : من آفاق الآيات فى الذكر

المعنى الأول : الشكر ٧٦
المعنى الثانى : أذكرونى أذكركم ٨٠
عالم المثال ٨١
ذكر الله وأولياء الله ٨٦
شرف الذاكرين ٩١
نور الذاكريـن ٩٤

الباب الثانى
صور التنفيذ العملية

الفصل الخامس : آداب الذكر وأوقاته

أولا : المكان ١٠٧
ثانيا : الزمان ١١٠
ثالثا : الذاكر ١١٨

الفصل السادس : قضايا فى الذكر

قواعدأصولية فقهية ١٢٦
أولا : هل المقصود بالذكر دراسة العلم ١٣٥
ثانيا : هل يجوز الذكر فى المساجد ١٤٥
ثالثا : هل يجوز الإجتماع لغرض الذكر ... ١٤٥
رابعاً : الذكر جهراً أم سراً ١٥١
خامسا : المسبحة ١٦٧
سادساً : الحركة الجسمانية فى الذكر ١٧٤

الفصل السابع : إشارات إلى أذكار ١٨٣

مراجع الكتاب ٢٠١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنويه هام

كل آية ، أو حديث نبوى شريف أو قول عالم ، ورد ذكره فى هذا الكتيب ، أعطيناه رقماً مسلسلاً مستمراً من أول الكتاب إلى آخره . وذكرنا بهامش الصفحة نفسها ، مكانه الدقيق فى أمهات الكتب والمراجع وإسم الناشر ، وتاريخ الطبعة ورقمها ، وتاريخ صدورها إن وجد .

وزيادة فى البيان ، وفتحا لأبواب البحث أمام القارئ ، أعطينا كل مرجع رقماً مسلسلاً بقائمة المراجع آخر هذا الكتيب ، نذكره دائماً فى هامش الصفحات ، إختصارا للتطويل ، وإزالة لأى التباس ..

نرجو مراجعة قائمة المراجع قبل البدء فى القراءة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

لا إله إلا الله الملك الحق المبين ...
محمد رسول الله النبى الصادق المبين ...
اللهم اجعل عملى هذا فى سبيلك وحدك ...
لا مقصد له إلا الحق ...

وأنت... تباركت وتعاليت ...الله الحق ...
وتقذف بالحق ... علام الغيوب ...

والحمدلله رب العالمين
أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً

(١) نبدأ بما بدأ به الله : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، الهادى المعين الحكيم العليم ، له الملك وله الحمد، وله الحكم فى الأولى والآخرة ... لا إله إلا هو الحى القيوم .

وأسأله ـ تعالى ـ أن يصلى ويسلم على خير أمة المتقين ، وسيد الهداة المهتدين وقائد الدعاة المجتبين ، وحبيب رب العالمين ، وإمام الأعزة المعتزين : سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، النبى الأمى العربى القرشى الهاشمى، النور المبين الهادى إلى صراط الله المستقيم ... وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، وسلم تسليما كثيراً فى كل وقت وحين .

(٢) هذا الكتيب سطرناه بناء على الطلب . إذ سألنى عدد كبير من تلاميذى وإخوانى خلال السنوات الأخيرة ، أن أكتب مذكرة فى حقيقة معنى ذكر الله وعلاقته بمفهوم الدين العام .

وشرح الله صدرى لذلك فى الآونة الأخيرة . ولكنى لم أقدم على الكتابة حتى عرفت فى عامنا هذا ـ١٤٠٧هـ رجلا أمريكياً فاضلاً مجاهداً فى سبيل ربه الأعلى ولا نزكى على الله أحداً . ودار بيننا حديث بل أحاديث . حول غياب المفهوم الإيمانى للدين فى العصر الحديث ، وكيف أن ما يسمى بالنهضة الإسلامية المعاصرة (١) ، خصوصا الجانب الحركى منها ، قد انحصر فى إطار

---

(١) ـ تعبير" النهضة " يوحى بوجود ، الرقدة ، والغفلة . ولا نظن أنه تعبير صحيح يعبر عن حقيقة الأمر الحادث على الساحة الآن . ولكننا إستعملناه مع التحفظ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضيق للغاية نتيجة لإعتمادها على مصادر محدودة من الفكر الإسلامى وجوانب معدودة من ظاهر الإسلام . والأخطر من ذلك فى رأينا أن نفهم الدين على أنه مجموعة من الأعمال ، ونغفل عن أهم حقائقه : ألا وهى علاقة المرء بربه ، مع كون هذه العلاقة هى المحدد الرئيسى لمستوى الإدراك والشخصية والسلوك .

(٣) فأعمال الإنسان السلوكيه الظاهرة ـ وهى بلا شك تعبر عن شخصيته ـ تتفاوت فى الدرجة والنوع .
ولا جدال فى أن نوعية الهدف المقصود ومدى الإلتزام به ، ودرجه الإخلاص والصدق فيه ، ومستوى الأداء والتنفيذ وحكمته ، كلها أمور لا تتحقق بمجرد توافر النية الظاهرة للقيام بالعمل الصالح . وإنما هى مرتبطة بحقيقة العبودية فى قلب المؤمن ، وبأبعاد الإيمان ومداركه فى التكوين الكلى للفرد . ولاخلاف فى أنها تعبير عن هذه الحقيقة الإيمانية .

وما يظهر من إختلال السلوك وغياب التوازن فى الشخصية الإسلامية المعاصرة أنما هو ناشىء ـ فى المقام الأول ـ عن إختلال فى التركيبة الكلية لعناصر الإيمان ، ومفهوم " دين الإسلام " لدى الشخص نفسه إذ من الواضح غياب الشمولية والتوازن عن أذهان معظم الدعاة والتابعين على السواء .

(٤) وفى خضم الحديث مع المهندس الأمريكى/ عبد الله نور الدين دوركى مدير ومؤسس دار الإسلام بولايه نيو مكسيكو بالولايات المتحدة ، تطرق الحديث إلى لب الأمر وهو " الوعى " بالله تعالى فى إدراك العبد : حاضراً موجوداً ، سميعاً بصيراً رقيباً ـ وهو معكم أينما كنتم ـ ووسائل التحقق بهذا الوعى من ذكر وفكر ، وهذا يحدد ـ بلا نزاع ـ السلوك الإنسانى ويحده ، ويفتح آفاقه أيضاً .

وبالطبع تطرق الحديث إلى مفهوم كلمة " ذكر الله " وموقعها فى القرآن والسنة . وإلى علاقة ذكر الله المقصود ، بالأذكار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمأمور بها كتاباً وسنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذكرت فى حديثى معه أن لكلمة " ذكر " فى آيات القرآن أكثر من أربعة عشر معنى (٢) . وأن الذكر والفكر والعقل والشكر والصبر ، وعدد عظيم من المبادئ والأساسيات الدينية إنما هى أوجه مختلفة لحقيقة مركزية واحدة ، وأنها كلها عناصر مترابطة فى وعى المؤمن وسلوكه .

(٥) ونشأ عن حديثنا هذا ، إصرار من جانبه على أن أكتب فى هذا الموضوع ـ مع التبسيط والإختصار ـ باللغة الإنجليزية التى أجيدها . ولكنى رأيت أن أكتب بالعربية ثم تترجم المادة بعد ذلك .
ومن ثم أمليت خلال شهر رمضان المبارك سنه ١٤٠٧ هـ ـ مادة الكتاب ، وراجع الأبناء الأستاذ { الحسن } صبرى محمد عارف ، وجلال الدين عبد العزيز ، تخريج الأحاديث والأقوال المنسوبة لعلماء الإسلام وقامت السيدة الفاضلة / حنان عبد الحميد رمضان بالكتابة على الآلة الكاتبة .

وأحمد الله تعالى أن تم ذلك كله عند آخر يوم من شهر رمضان المبارك : سيد شهور السنة .
وأسأله تعالى أن يجعل هذا كتاباً مباركاً كالشهر الذى كتب فيه .

(٦) وقد قسمت الحديث إلى بابين رئيسيين :

الباب الأول : فى الأساس النظرى

وفيه أبين فى **الفصل الأول** أن الذكر عنصر وخاصية أساسية فى شتى العبادات الإسلامية .
ونثبت فى **الفصل الثانى** أن الذكر جماع العبادات ، كما يتبين من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال أئمة أهل السنة والجماعة .
ويكون منطقياً بعد ذلك أن نفرد **الفصل الثالث** لمناقشة مركزية الذكر والفكر فى الدين كله .

ونختم الباب الأول بالفصل الرابع الذى نشير فيه إلى أبعاد بالغة الأهمية فى فهم الأفق الإسلامى للذكر فى العالمين المادى والمعنوى .

---

(٢) ـ انظر بند رقم / ٥٣ من هذا الكتيب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى : فيما يتعلق بكيفيات الذكر وأصول الذاكرين .

وفى الفصل الأول من الباب وهو **الفصل الخامس** من الكتاب نعرض ما اتفق عليه علماء الأمة فى آداب ذكر الله تعالى ، من حيث المكان والزمان وحال الذاكر .

وفى **الفصل السادس** نناقش بعض المقولات والمواضيع التى يثور حولها نقاش كبير فى هذه الأيام ونثبت فيها بالدليل الشرعى المؤكد موقف أهل السنة والجماعة ليتبين للناس إنحرافات غيرهم ، ويتمحص الحق من الباطل .
ومن هذه المواضيع مايتعلق بجواز الذكر فى المساجد ، وجواز الذكر الجماعى ، وهل يجهر به ، واستعمال المسبحة ، والتمايل الذى شوهد على بعض الذاكرين .

ثم نختم الباب الثانى والكتاب كله **بالفصل السابع** الذى نعرض فيه عينة من الأوامر والتوجيهات القرآنية والنبوية عن الأفكار الرئيسية للمسلم.

محسن بن إبراهيم بن عبد المجيد بن اللبان

رمل الإسكندرية

شوال ١٤٠٧ هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول
بعض المفاهيم الأساسية

الفصـــل الأول
الذكر فى مبانى الإسلام

- الذكر فى مبانى الصلاة
- الذكر فى مبانـى الزكاة
- الذكر فى مبانـى الصيام
- الذكر فى مبانـى الحج
- الذكر فى مبانى الشهادتين
- خلاصة القول فى هذا الفصل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨) من الأخطاء الشائعة عند عامة مسلمى هذا العصر ، الظن بأن الإسلام ليس إلاخمسة أركان : الشهادتين ، والصلاة ، والزكاة ، والحج والصيام .

نعم ، صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

{ بُنِيَ الإسلامُ عَلَىَ خَمس : شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، والحجِ ، وَصَومِ رَمَضَانَ } (٣)

ولكن هذا لا يعنى أن الإسلام هو هذه الخمسة .

فإنه صلى الله عليه وسلم ، إنما قال : " بنى الإسلام على خمس " ولم يقل هذه الخمسة هى تمام الإسلام وكماله . فالإسلام مبنى على هذه القواعد الخمسة ، وليست هذه القواعد الخمسة هى كل الإسلام .

(٩) وكلمة الإسلام يُعرف لها معنيان على الأقل :

الأول : وهو المعنى الواسع :

الإستسلام والطاعة والإنقياد ، وتشير إلى مضمون الدين كله .

قال تعالى : { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسلامُ ـ٣/ آل عمران ١٩ }

وقال تعالى : { وَمَنْ يَبتَغِ غَيرَ الإِسلامِ دِينا فَلَن يُقبَلَ منهُ وَهُو فِى الأَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ـ ٣/ آل عمران ٨٥ }

وفى هذا المعنى يكون الإسلام أكبر بكثير من مفهوم الأركان الخمسة التى قد تمثل البداية أو الحد الأدنى .

---

(٣) ـ حديث صحيح أخرجه البخارى واللفظ له ، ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

أنظر : فتح البارى ، المرجع / ١١ ، جزء ١ ، ص ٤٩

أنظر : إبن حسام الدين الهندى ، كنز العمال ، المرجع / ٢٨ ، جزء/١ ، ص٢٧ ، حديث / ٢١ وقارنه بالأحاديث / ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

أنظر : الجامع الصغير ، الإمام السيوطى ، المرجع/٢٤، جزء/١، ص ١٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانى : وهو المعنى الضيق :

يشير إلى الإلتزام بأداء الأفعال المأمور بها ، وفى مقدمتها هذه القواعد الخمس ، والإلتزام بالإنتهاء عما نهى عنه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذا المعنى الضيق ينصب بالدرجة الأولى على جانب الأعمال بجوارح الجسد أو باللسان كما فى الشهادتين .وهو الذى يقصد عادة إذا كان الحديث متعلقا بدرجات ونطاق الإسلام والإيمان والإحسان .

(١٠) وفى كلا المعنيين يلعب الذكر دورا مركزيا ودائما ، حتى وكأنه جزء لا يتجزأ من أعمال الإسلام بالمعنى الضيق ، كما أنه قاسم مشترك فى عامة مبانى الإسلام بالمعنى الواسع .

بل إن نصوص القرآن والسنة تتظاهر على إعتبار الذكر أفضل العبادات وأنه ينوب عنها ويديل لها فى حالات الضرورة . ومن صحيح السنة ما يدل بلا لبس ولا إبهام على أن الذكر جماع العبادات .

وإذا صح هذا القول ، يكون تغافل المسلم عن معرفة حقيقة الذكر { وأيضا الفكر لشدة ارتباطهما ببعضهما البعض } وأبعاده الكلية سلوكا ناقصا غير مقبول .

كما أنه لا بد من بيان موقع الذكر فى مبانى الإسلام وأركانه الأساسية كبدايه ضرورية لتقدير حقيقته وأبعاده . ومن ثم فقد خصصنا هذا الفصل الأول لهذا الغرض .

إلا أن الملخص الوافى لموقع الذكر فى المبنى الإسلامى العام المقام على الأركان الخمسة تفصيلا أمر خارج عن نطاق هذا الكتاب . ومن ثم نأخذ ركنا واحدا من الأركان الخمسة : " **ركن الصلاة** " مثالا نبحثه بشىء من البيان، ثم نجمل بقية الأركان فى إختصار . {٤}

{٤} ـ أنظر دراستنا فى أبعاد المقصود بالمبانى الإسلامية المقامة على الأركان الخمسة والتى تعد للطبع الآن ، بدار **لواء الحمد** .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اولا : الذكر فى مبانى الصلاة

فالصلاة مثلاًتبدأ بالنية ثم التكبير، ثم الإستفتاح ، فالتلاوة ، فالركوع ، فالتحميد، فالسجود ، فالتشهد ، فالتسليم . وهذه كلها مداخل ومجالات في التوحيد والتذكر عموما .

النيـــــة

(١١) النية أساس لكل الأفعال والأحوال والأقوال ... وبدونها لا يصح عمل أياً كان .

فكل عمل لم يقصد به وجه الله تعالى ، ولم يفعله فاعله إستجابة لأمر الله به ، أو لأن الله أرشد اليه ، ورغبة فى الله وفى ثوابه ، لا يعد عملاً صالحا مهما كانت درجة خيريته .

قال تعالى :

{ من كان يريدُ العاجلةَ عجّلنا لهُ فيها مانشاءُ لِمَنْ نُريد ثُمَّ جعلنا لهُ جَهَنَّمَ يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومَنْ أراد الآخرةَ وسَعَى لها سعيَهَا وهو مُؤمِنٌ فأولئكَ كان سعيهُم مشكوراً ـ ١٧/ الإسراء ١٨ ، ١٩ }

{ ولقد أوحي إليْكَ وإلى الذين من قَبلكَ لئن أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَملُك ولَتَكُونَنَ من الخاسرين ـ ٣٩ / الزمر ٦٥ }

{ قُل هَل نُنَبِّئُكُم بالأخسَرِينَ أعمَالا... الذينَ ضَلَّ سَعيُهُم فى الحَيَاة الدُنيَا وهُمَ يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعا ـ ١٨/الكهف ١٠٣ ، ١٠٤ }

وفى الحديث القدسى :

{ إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجُلٌ إستُشهدَ فأتيَ به فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قال : فما عملت فيها ... قال : قاتلت فيك حَتى إستشهدت ...قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يُقَالَ جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجُلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ... قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ... قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .
ورجل وَسَّعَ الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ... قال : ما تركت سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ... قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جَواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار } (٥)

والنية أساسا استحضار فى الذهن لمقصود العمل وحقيقته . وهذا هو " التذكر" كما أنه أيضا " توجه " فبدون تذكر المقصود بالعمل أى ذكر الله لا تصح الأعمال من أولها إلى آخرها .
وقد اشترط البعض فى نية الصلاة التلفظ بها بعد استحضار معناها ، ورأى آخرون الإكتفاء باستحضار النية ، أى تذكر المقصود ، ولا يلزم التفوه بها .

(١٢) واتفقت كلمة الأمة من عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى يومنا هذا ، على اعتبار حديث النيات أهم حديث يبنى عليه العمل فى الإسلام .
بل اعتبر العلماء أن إختيار الإمام البخارى رضى الله عنه لهذا الحديث ليصدر به كتابه كله ، دليل على فقهه وعلمه .وفيه يقول صلى الله عليه وسلم :
{ إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِيءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجرَتُهُ إِلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوَ إِلى امرَأَةٍ يَنكِحُهَا فَهِجرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ } (٦)

---

(٥) ـ أخرجه الإمام مسلم واللفظ له والترمذى والنسائى عن أبى هريره .
أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع / ١٢ ، جزء / ١٣ ، مجلد / ٥ ، ص ٥٠ ـ ٥١
(٦) ـ أخرجه الإمام البخارى واللفظ له ومسلم ، متفق عليه .
أنظر : بن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع / ١١ ، جزء / ١ ، ص ٩ ، حديث / ١
أنظر : الأربعين النووية ، المرجع / ٢١ ، ص ٢٧ ، الحديث الأول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا شك فى أن استحضار النية ، هو جمع للهمة وتركيز للذهن بالحضور العقلى أو القلبى مع المذكور سبحانه . وإن لم تكن النية هى البداية الفعلية للصلاة ، فهى ـ على أقل الفروض ـ شرط إقامتها . فبدون ذكر الله وقصده بالعبادة ، وحصر الهمة فى ذلك لا تصح العبادة ، كما هو واضح من حديث النيات .

التكبيـــر

(١٣) والتكبير هو إنشاء حال بالخروج من الدنيا وما فيها ، والقائها خلف العبد ، وهو غير ملتفت إليها بالفكر ولا بالإحساس . فقول العبد " **الله أكبر** " تعنى ضمن معانى أخرى أنه ـ عز وجل ـ أكبر من كل شئ يمكن أن يرد على البال أو يتصوره المرء .
والعبد الصادق ـ فى هذه اللحظات ـ يفنى عن كل شئ إلا توجهة إلى الله . فالذى يكبر ربه يتوجّه إلى الأعلى والأكبر والأعظم سبحانه وتعالى وحده ولا ينشغل بسواه ممن هو دونه .

وقد عُرفَ عن الإمام الشافعى رضى الله عنه وأرضاه والشافعية عموما عدم استحبابَ النطق بتكبيرة الإحرام للصلاة قبل أن يُتم العبد تركيز ذهنه فيها فيأتى بها بحقها وعلى معناها : وهو أن يكون صادقا فى عدم الإلتفات إلا إلى الله .

(١٤) وهذا بلا شك توجيه وتدريب على إسلام الوجه لله تعالى :

{ وَمَن يُسلم وَجهَهُ إلى اللّه وَهُوَ مُحسنٌ فَقَد استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقَى وإلى اللهِ عَاقِبةُ الأُمُورِ ـ ٣١ / لقمان ٢٢ }

{ وَمَن أحسَنُ دِيناً ممَّن أسلَمَ وَجهَهُ للّه وَهُوَ مُحسن واتَّبَعَ ملّةَ إبراهِيم حَنِيفاً وَاتَّخذَ اللّهُ إبراهِيمَ خَلِيلاً ـ ٤ / النساء ١٢٥ }

وسيدنا وأبونا إبراهيم عليه السلام ـ الذى نتبع ملته حنفاء ـ لما إستبان له الحق هتف قائلا :

{ يَاقَومِ إنّى بَرِئٌ مّمَّاتُشرِكُونَ إنّي وَجّهتُ وَجهِيَ للّذى فَطَرَ السّمٰوٰتِ وَالأَرضَ حَنِيفاً وَمَاأنَا مِنَ المُشرِكِينَ ـ ٦/الأنعام ٧٨.٧٩ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمشركون هم الذين يتوجهون لغير الله في الكون ، أيا كانت هذه الطواغيت من مال أو سلطان أو أشخاص أو شهوات أو نزعات . والحنيفية هى الميل إلى وجهة واحدة وإلى أمر بعينه ، ميلاً كاملاً تاماً لا انحراف عنه ولا تذبذب فيه .

فلا غرابة إذن فى أن إسلام الوجه إلى الله باب أساسى ومبنى رئيسى فى الدين كله ، بل قد يكون هو الأصل فيه : وهو فى حقيقته ذكر وتذكر وإنتباه .

وهو على أية حال أحد الشقين الرئيسيين فى معنى " **التسليم الكامل لله** " الذى هو أعلى درجات العبودية ، والذى اشتق منه إسم هذا الدين وإسم هذه الأمة . قال تعالى :

{ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسلِمِينَ مِن قَبلُ ـ ٢٢/الحج٧٨ }

{ رَبَّنَا وَاجعَلنَا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسلِمَةً لَّك وأرنا مَنَاسِكَنَا وتُبْ علينَا إِنَّكَ أنت التوابُ الرحيمُ ـ ٢/ البقرة ١٢٨}

(١٥) فالشق الأول فى التسليم والإسلام لله هو صدق التوجه إلى الله الحق .

والشق الثانى هو إحسان العمل لله بطاعة الأمر والنهى الصادر منه بلا تردد ولا تمحك . قال تعالى :

{ إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسلِم قَالَ أَسلَمتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ـ ٢/ البقرة ١٣١}

فلما أطاعه بعد ذلك فى كل شئ : فى التسليم لقضائه بالحرق بالنار ، وفى ذهابه بإسماعيل وهاجر وتركهما فى الصحراء القاحلة ، وفى إطاعة التوجيه بذبح إبنه ... مدحه الله تعالى بالكمال فقال :

{ وَإِبرَاهِيم الَّذِى وَفَّى ـ ٥٣ / النجم ٣٧ }

(١٦) ومن حكمة الله البالغة أن تكون بداية الصلاة الفعلية بالتكبير : وهو علامة وبداية وراية لحال العبد المصلى، وفاتحة توجهه وبداية تنفيذ نيته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكأنه يقول " الله أكبر من كل شئ قد يشغلنى فى الدنيا وأنا تاركها خلفى ومهاجر إلى ربى أناجيه وأسأله وأستعينه " فكأنما خرج من الدنيا بالفعل فى رحلة إلى ربه .

والتكبير بلا نزاع ، وهو نطق بكلمات ذكر ، هى مدخل الأمر كله كما أن جماع النية ذكر وتذكر وتجميع همه .

فتوجيه الوجهة الذى نقصده ونتحدث عنه ينبنى ليس على النية وحدها وإنما يتأكد بالتكبير أيضا ـ وهو ذكر وتذكر وإنتباه ـ يؤدى إلى حال قلبى وإدراك شعورى معناه وحقيقته أصل فى الدين كله .
وقد قال الحق ـ تعالى شأنه ـ فى الأمر الصادر لنبيه الكريم ، عليه صلوات الله وسلامه ، ومن بعده أمة الإسلام كلها ...

{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ـ ٦/ الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ }

أدعية الإستفتاح

(١٧) **أدعية الإستفتاح** تتضمن معرفة العبد بنفسه ، ومعرفة العبد بربه . وواضح من الوهلة الأولى أنها ذكر فى ذكر .

ومن هذه الأدعية وأشهرها ، الآيتين السابقتين الموجهتين إلى رسول الله صلى االله عليه وسلم ، وبقولهما المسلم بعد تغيير" **وأنا أول المسلمين**" إلى ما يتناسب مع حاله ... وأنا من المسلمين .
وفى هاتين الآيتين إشارة إلى أن العبد وما يفعله ، حياته ومماته جميعا ، يسلمها جميعا كله وحده . فهى تأكيد لملك الله فيه وعبوديته له .

وجميع الصيغ التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم {٧} إنما محورها الإعتراف بالعجز والحاجة وطلب الخير منه سبحانه ، والتسليم له بالعلو والعظمة والوحدانية ، وأن الأمر كله بيده ـ تعالى شأنه .

{٧} ـ تأمل مجموعة طيبة من أدعية إستفتاح الصلاة عند إبن تيمية، الكلم الطيب، المرجع/٢٩ ، ص ٢٨ ، ٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه هى المعرفة بالنفس ، والمعرفة برب النفوس والأرواح : فمن عرف نفسه فقد عرف ربه : من عرف نفسه بالعجز عرف الله ربه بالقدرة ، ومن عرف نفسه بالفقر عرف الله ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالجهل عرف الله ربه بالعلم .
وعكس ذلك صحيح أيضاً. من عرف الله تعالى فقد عرف نفسه أيضاً . {٨}

وهذه المعرفة وهذا الدعاء علم وإقرار بالعلم بالله وبصفات الله . والعلم به سبحانه والقول بذلك ودعائه ذكر وفكر . فالذكر هنا أيضا موجود لا ينفصم ، والمبنى الإسلامى المقام فى أدعية الإستفتاح هنا يشير إلى "طلع العبودية إلى معالم الربوبية ".

تلاوة القـــرآن

(١٨) تلاوة كتاب الله بداية بالفاتحة فغيرها من الآيات والسور مدخل ثالث إلى الصلة برب العباد ومبنى آخر مقام على الصلاة ومتضمن فيها .
فليس من علم إلا من كتاب الله ، وليس من إدراك إلا من كتاب الله ، وليس من نور كذلك النور الذى من كتاب الله ، ولا تطهر كذلك الذى يفيض عليك من أنوار الكلام الأزلى من القدوس الواسع الحكيم . وهو مدخل التصديق والمعرفة وهو محل الثواب حيث :

{ مَن قَرَأحرفا من كتاب اللّه فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَة بعَشر أمثَالِها، لا أقُولُ آلم حَرفٌ وَلَكِنَ ألف حَرَف ، وَميم حَرف } {٩}

وتلاوة القرآن يترشح منها على القلب { والنفس } آثار وأحوال . فمنه السكينة ومنه الشفاء لما فى الصدور ، ومنه الهدى والرحمة ، ومنه العلم الذى لم تكونوا تعلمون .

{٨} ــ أنظر فى عموم هذا المعنى : إبن قيم الجوزيه ، طريق الهجرتين ، المرجع / ٤٣ ، ص ٦ ، ١٨
{٩} ــ أخرجه البخارى فى التاريخ والترمذى واللفظ له والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنهم .
أنظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء / ١ ، ص ٥١٩ ، حديث ٢٣٢٢
أنظر : المستدرك ، الحاكم ، المرجع / ١٨ ، جزء / ١ ، ص ٥٦٦
أنظر : المباركفورى ، تحفه الأحوذى ، المرجع / ١٣ ، جزء / ٨ ، ص ٢٢٦ ، حديث / ٣٠٧٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الله تعالى :

{ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ـ ١/يونس٥٧ }

وقال تعالى :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ـ ١٧ الإسراء ٨٢ }

وقال تعالى :

{ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ـ ٤١ / فصلت ٤٤ }

وقال تعالى :

{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ـ ٢/ البقرة ١٥١ }

(١٩) والتلاوة ذكر بلا شك : وكتاب الله هو " الذكر الحكيم " الذى حفظه الله تعالى ويحفظه على الدوام .

قال تعالى :

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ـ ١٥ / الحجر ٩ }

وأعلى ذكر اللسان وأفضله ذكره سبحانه بتلاوة كتابه ، أى فى ذكر وتذكر الحقائق المتعلقة به من ألوهية وربوبية ، وكذلك أحكامه وأفعاله التى تضمنتها الآيات .

ويجوز فى ذلك تكرار الآية الواحدة أو المقطع منها عدد من المرات كما ورد عن السلف وعن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فالمبنى المقام على التلاوة هو مبنى الإتصال بالله والعلم به ، وبما خلق وقدر . وهذا " ذكر الله " فى أحد معانيه وأبعاده .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الـركـــــوع

(٢٠) الركوع علامة التواضع لله عز وجل وبابه . وفيه ذكر **الله بتسبيح العبد** ربه العظيم فوق كل أحد ، والذى يضرب الأمثال وليس كمثله شئ ، العزيز القهار المتعال . قال الله تعالى :

{ **التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُون السَّائِحُونَ الرَّاكِعُون السَّاجِدُونَ** ـ ٩ / التوبة ١١٢ }

وقال تعالى :

{ **وظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستَغْفَر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ** ـ ٣٨/ ص ٢٤ }

فهو إنحناء بالإجلال والتعظيم ، ومعرفة من العبد بربه : فالعظيم سبحانه هو الذى يتواضع له وهو الذى يركع إليه العبد طالبا العفو ومقرا بالحاجة والصغار .
فيستغفر الله على ما بدر منه ويعرف له حقه فيما قدر له وعليه : سبحانك ربى العظيم .
فهذه حالة عبودية فيها رجوع وإنابة بالطاعات ومعرفة عظيم قدره سبحانه ـ كما فى قول سيدنا يونس عليه السلام :

{ **لاَّإِلَهَ إِلاَّأَنتَ سُبحَانَكَ إِنِّى كنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ـ ٢١/الأنبياء٨٧ }

التحميد عقب الركـوع

(٢١) ومن سنة النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم ، التحميد بعد الرفع من الركوع .
فالله تعالى يسمع لمن يحمده ويرضى به وبقضائه وتدبيره وحكمه . وسْمعُ الله القادر الكريم ، وهو صلة منه للعبد وطلبه .
وقد ورد فى ذلك أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
{ **ربَّنَا ولَكَ الحَمدُ حمداً كَثِيرا طَيِّبا مُبَاركًا فِيهِ ... فَلمَّا**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انصَرَفَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن المُتكَلِّم قالَ: أنا، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : رَأيتُ بِضعَةً وَثلاثينَ مَلَكًا يَبتَدِرُونَها أيُّهُم يَكتبُها أوَّلُ } (١٠)

وليس يخفى أن قول " سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد " إنما هو ذكر باللسان وبالقلب إن صدق فيه العبد ، ويتوافق مع حال الجسد بالنهوض من الركوع وربط بالركوع وليس بالسجود لأن التشهد أعلى من التحميد .
والحمد يكون على نعمة الله على العبد بأن جعله أو قبله عبداً راكعاً .

السجـــود

(٢٢) ويعلو معنى **السجود** فى مضمونه على معنى الركوع : فالسجود ذلة وتسليم وخشوع وهو من حيث معناه ومن حيث التحقق به علامة العبودية الأولى وسبب القرب الربانى الأعظم . قال تعالى :

{ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقتَرِب ـ ٩٦ / العلق ١٩ }

وعنه صلى الله عليه وسلم :

{ أقرَبُ مَايَكونُ العَبدُمِن ربِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأكثِرُوا الدُعَاءَ} (١١)

فهنا ذلة الفقر ، وذلة الإضطرار بتمريغ وجه العبد فى التراب .
يقول " **أنا العبد الأدنى فى أسفل الأرض ـ وأنت سبحانك الرب الأعلى** "... **ففى السجود أحوال ذكر وأقوال ذكر ، وكلها فى لب العبودية وحقيقتها . ومبنى السجود بمعناه فى الخشوع والتسليم مبنى آخر أساسى فى الدين ومقام على الصلاة ، لبه ذكر الله ، بقدرته وعظمته .**

---

(١٠) ـ أخرجه الإمام البخارى واللفظ له ، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط مع إختلاف فى اللفظ .
أنظر : إبن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع / ١١ ، جزء /٢ ، ص ٢٨٤، حديث ٧٩٩
أنظر : ابن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء / ٨ ، ص ١٢٥ ، حديث / ٢٢٢١ .
(١١) ـ أخرجه الإمام مسلم واللفظ له وأبو داود ،والنسائى .
أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع / ١٢ ، جزء / ٤ ، مجلد / ٢ ، ص ٢٠٠
أنظر : الإمام السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع / ٢٤ ، جزء / ١ ، ص ٥٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التشهـــــد

(٢٣) **والتشهد** إقرار وتوكيد لما فى الشهادتين من إعتراف بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

والشهادة الأولى منهما تتعلق بعظمته وجلاله ، وتعاليه وحكمته ولطفه ورحمته ، ووده وكرمه ، وسائر صفاته وأفعاله .
وكل هذا يسبب ذكر العبد لربه فيسبحه ويمجده ، ويرجوه ويطلب منه ، ويتوب إليه ويستغفره ويستهديه .

والشهادة الثانية تستتبع الدعاء للنبى صلى الله عليه وسلم ، بزيادة الفيوضات والعطاءات شكراً وإمتناناً لمهمته التى وكله الله بها فى إيصال الهدى والخير إلى البشرية . ولأن محبته واتباعه شرط فى قبول الأعمال .

وهذا المعنى هو الأصل فى الصلاة والسلام عليه ومن ثم فليس بغريب أن يتبع ذلك الصلاة والسلام عليه وآله كما على سيدنا إبراهيم وفى صلب التشهد .
وهذان على وجه التحديد فى المقصود الأول بالذكر .

---

(٢٤) وفى التشهد أيضاً ، تثبيت للوجهة وإسلام الوجه لله تعالى تماماً كما فى إبتداء الصلاة بتكبيرة الإحرام . وفيه إدراك لشمولية أمة الإسلام ـ حزب الله ـ ووحدة المصير والوجهة ، ووحدة الحقيقة والتكوين .

فحينما يقول العبد " **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**" يكون قد أشرك المؤمنين جميعاًمعه ، ودعا لأمه الحق مع دعائه لنفسه .
وهذه ظاهرة تتفق تماما مع قول العبد فى سورة الفاتحة " **إياك نعبد وإياك نستعين** " بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد ،مع قوله "**صراط الذين أنعمت عليهم ...** " فهو تابع وداخل فى الأمة وليس مبتدعاً لطريق جديد يسير فيه وحده . [١٢]
وهذا المبنى كله ذكر الله وعباده الصالحين وملائكته ، وذكر لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى رحلة الإسراء والمعراج ، على بعض الأقوال .

---

[١٢] ـ أنظر فى بيان هذا المعنى وتأسيسه فى عمق وجلاء الشيخ العلامة إبراهيم حلمى القادرى ، رحمه الله ورضى عنه . كتاب مدراج الحقيقة ، المرجع / ٥٨ ، ص ١٥

(٢٥) ويتمم ذلك كله التسليم على الحضور الكلى فى الصلاة : ملائكة وغيرهم ، بإخلاص ويقين بالرابطة البشرية والكونية العامة . قال تعالى :

{ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ـ ٣١ / لقمان ٢٨ }

وهذه إشارة إلى إشراك أمة الله وتوحيدها فى عبادته : فما من ملك فى السموات إلا قائم أو راكع أو ساجد لله تعالى : وهذه أفعال الصلاة : وهذا تشبه بالملأ الأعلى وعبادتهم . ولعل فى قوله تعالى :

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ـ ٨٩/ الفجر ٢٧، ٣٠ }

إشارة إلى هذه الكلية ، فالله تعالى لم يقل مع عبادى وإنما " فى عبادى" ، والله تعالى أعلم .

خلاصة الذكر فى الصلاة

(٢٦) فالصلاة بدأت بتذكر الله وحصر النية لقصده ثم ذكر الله بالتكبير ، ثم ذكر الله بالدعاء إستفتاحاً ،ثم ذكر الله بالتلاوة ، ثم ذكر الله بالتسبيح راكعاً، ثم ذكر الله بالحمد قائماً ، ثم ذكر الله بالتسبيح ساجداً ، ثم ذكر الله بالتشهد ـ صادقاً، ثم ذكر الله بالتسليم مخلصا فهى ذكر من بدايتها . قال تعالى شأنه :

{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ـ ٢٠ / طه ١٤ }

فجعل المراد هو ذكره ، والصلاة هى الوسيلة لذلك .
والله تعالى أعلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذكر فى مبانى الزكاة

(٢٧) وهذا البيان المقتضب عن الصلاة ، مثال لما فى الزكاة والصيام والحج من مبانى وإتساعات متعلقة بهذه الأركان . ولما لم يكن من قصدنا الدخول فى هذه الأبواب نعرض لها فى كلمات متعجلة ، فنقول :

الزكاة والمبنى المقام عليها تدريب على تفضيل الآخرة ، وكسر خاصية النفس فى تقييم الحاضر ، وإغفال المستقبل . وهو كذلك من حيث نقض الخوف على فقدان مقومات الحياة الدنيا المادية والتخلص من حبها الكامن فى النفس وتدريب على الثقة بالله تعالى وتدريب على الرغبة فيه وفيما عنده . قال تعالى :

{ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ـ ٣ / آل عمران ١٧٥ }

وعنه صلى الله عليه وسلم :

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ... الحديث } (١٣)

---

(١٣) ـ أخرجه الإمام أحمد ، والنسائى واللفظ له ، وابن حبان . عن سبرة بن أبى فاكه بطريق صحيح . كما صححه العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار .

أنظر : الإمام الغزالى ، الإحياء ، المرجع /٤٨ ، جزء / ٣ ، ص ٢٩

أنظر : الإمام النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع / ٢٥ ، جزء / ١ ، ص ٣٠٧

أنظر : النسائى ، السنن ، المرجع / ١٥ ، جزء / ٦ ، كتاب الجهاد ، ص ٢١ ، ٢٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢٨) فالمبنى المقام على الزكاة من هذا المنطق ، إرتباط بالمعانى الكامنة فى الروح ، وسمو إلى آفاق التقويم الأحسن الذى خلق الله الإنسان فيه . {١٤} وهذا الإختيار بين التدنى ، والتسامى : بين الدنيا والآخرة ، هو إختيار رئيسى فى مفهوم الدين . قال تعالى :

{ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنيَاوَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الأخِرَةَ ـ٣/آل عمران١٥٢ }

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاهَا مَذمُوما مَّدحُوراً ، وَمَنَ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سعيهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأولئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَّشكُوراً ـ ١٧/ الإسراء ١٨ ، ١٩}

والإختبار الإلهي للإنسان على الأرض محوره فى عملية الإختيار بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة ... بين الله والنفس . قال تعالى :

{ إِنَّا جَعَلنَا مَا عَلَى الأرضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلاً ـ ١٨ / الكهف ٧ }

وقال تعالى :

{ اعلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُم وَتَكَاثُرٌ فِى الأموَالِ وَالأولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الأخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ـ ٥٧ / الحديد ٢٠ }

وقال تعالى :

{ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيرٌ أَمَلاً ـ ١٨ / الكهف ٤٦ }

وعملية الإختيار التى يقوم بها المرء إنما هى تذكر وتفكر وتعقل . وإذا غفل الإنسان عن الله واليوم الآخر تملكته النفس بنوازعها وشهواتها الجسدية الدنيوية . والزكاة تعبير عن هذا التذكر وهذا الإختيار .وهى ذكر بالأفعال فى المقام الأول .

{١٤} ـ قال تعالى : { لَقَد خَلَقنَا الإِنسَانَ فِى أَحسَنِ تَقوِيمٍ ثُمَّ رَدَدنَاهُ أَسفَلَ سَافِلِينَ ـ ٩٥ / التين ٤ ، ٥ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى تطهير للنفس من مراداتها الأرضية الدنيوية . فالمرء يذكر ربه وآخرته فيبيع حاضره بالجنة ورضا مولاه الكريم الحبيب . وهذا تطهير له من أدناس التدنى . قال الله تعالى :

{ خُذ مِن أموَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِم بِهَا ـ ٩/ التوبة ١٠٣ }

كما لا يخفى فإن النية هنا أيضاً ضرورية كما فى بقية الأعمال . وهى ذكر وتذكر وبدونها لا يصلح العمل .

الذكر فى مبانى الصيام

(٢٩) **والصيام** تدريب لقوى التحمل والجلد والعزيمة فالقوة قوتان: قوة إيجابية بالأفعال ضرباً وتنفيذاً، وقوة بالصبر والجلد . وأشار عليه الصلاة والسلام إلى ذلك فى قوله :

{ لَيسَ الشَّدِيدُ بالصَرعَةِ ، إنَّمَا الشَّدِيدُ الذى يَملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ } {١٥}

والصيام صبر عن أمور كالطعام والشراب والجنس بمعنى الإمتناع ، وصبر على أمور كألم الجوع والعطش والشهوات بمعنى تحمل الآلام . وفى إستمراريته معنى المصابرة والمرابطة . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

{ الصَّبر نصفُ الإيمَانِ } {١٦}

وفى الحديث الآخر قال :

{ الصَّوم نصفُ الصَّبرِ } {١٧}

{١٥} ـ أخرجه البخارى واللفظ له ، ومسلم والإمام أحمد عن أبى هريرة .

أنظر : إبن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، مرجع / ١١ ، جزء / ١٠ ، ص ٥١٨ حديث /٦١١٤

{١٦} ـ أخرجه أبونعيم فى الحلية والخطيب فى التاريخ من حديث إبن مسعود بسند حسن .

أنظر : تخريج الإمام العراقى على هامش الإحياء ، مرجع / ٤٨ ، جزء / ١ ، ص ٢٣١

{١٧} ـ أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وإبن ماجه من حديث أبى هريرة .

أنظر : تخريج الإمام العراقى على هامش الإحياء ، مرجع / ٤٨ ، جزء / ١ ، ص ٢٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأصبح الصوم ، بذلك ، ربع الإيمان . ولا يمكن بقاء الصائم صائماً، وهو يشعربآلام الجوع والعطش ويمتنع عن الشهوات ، إلا إذا كان ذاكراً ـ لمقصوده ـ وهو الله ورضاه ـ خوفاً وطمعاً . وقد قال عز من قائل :

{ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسَابٍ ـ ٣٩ / الزمر . ١ }

فمداومة الذكر بمعنى التذكر أمر جوهرى لاستمرارية الصيام . وقد أفصح صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فى الحديث :

{ إذا أَصبَحَ أَحَدُكُم يَومًا صَائِمًا فَلاَ يَرفُثْ وَلا يَجهَلْ فَإِنْ امرُؤٌ شَاتَمَهُ أَو قَاتَلَهُ ، فَليَقُل إِنِّى صَائِمٌ إِنِّى صَائِمٌ } (١٨)

فهنا أصبح الذكر عنصراً منفصلاً لصلاح الصيام بالإضافة لكونه عنصراً متضمناً ، فى حالة الصيام كله . والنية هنا أيضاً ضرورية .
وإن كان البعض قد رأى الإكتفاء بنية واحدة لصيام الشهر كله ، وأصر آخرون على نية لكل يوم ، إلا أنها ذكر لله لا ينفك عن الصيام ولا عن عمل آخر .

الذكر فى مبانى الحج

(٣٠) **والحج** رحلة عودة الروح إلى بارئها . فهو تمثل كامل لرحلة الحياة الإيمانية كلها فالإحرام توجه لله وترك للدنيا ، **ومداومة التلبية إنما هى ذكر بالعودة إليه سبحانه دنيا وآخرة** ، وملابس الإحرام أكفان المؤمن وحاجته من الدنيا ، التى رغب عنها إلى الله . ومناسك الحج كلها تعرّف على الله بالعبودية :

أولاً : بجلاله وعظمته ورحمته وكرمه فى موقف عرفة . وهو موقف ذكر.
ثانياً : بالإزدلاف إليه ساعين مُلبين بالعبادات والمأمورات والنوافل قاصدين له بين عرفة ومنى . وكلها أفعال ذكر .

---

(١٨) ـ أخرجه الإمام مالك ، والبخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة . وابن حبان ، والحاكم والبيهقى وابن السنى عن أبى هريرة باختلاف فى اللفظ .
أنظر : ابن حسام الدين الهندى ، الكنز، المرجع/٢٨ ، جزء/٨ ، ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، حديث/ ٢٣٨٦٠ والأحاديث / ٢٣٨٥٨ ، ٢٣٨٦٤ ، ٢٣٨٦٦ ، ٢٣٨٦٩ .
أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع / ١٢ ، جزء / ٨ ، ص ٢٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال عز من قائل :

{ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ـ ٢/ البقرة ١٩٨، ١٩٩ }

رابعاً : ثم الإفاضة إليه عند المعلم الذى جعله علماً للربوبية والألوهية ـ البيت الحرام ـ إنتظاما فى سنة الكون العابد لربه ، وتشبهاً وتوافقا مع الملأ الأعلى فى طوافهم بالبيت المعمور :

{ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ـ ٢١ / الأنبياء ٢٠ }

ثم يتبع الله تعالى ذلك كله بالأمر بدوام الذكر بأقصى ما يستطيع العبد من قوة وكثرة :

{ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ـ ٢ / البقرة ٢٠٠ }

فالرحلة كلها ذكر فى ذكر من بدايتها لنهايتها . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ إِنَّمَا جُعِلَ رَمْيُ الْجِمَارِ وَالطَّوَافُ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ لَا لِغَيْرِهِ } (١٩)

---

(١٩) ـ أخرجه أبو داود والحاكم عن عائشة رضى الله عنها واللفظ له وقال صحيح على شرط مسلم والبخارى ووافقه على ذلك الذهبى فى تلخيص المستدرك وصححه بأسفل الصفحة ذاتها .
أنظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع / ١٨ ، جزء / ١ ، ص ٤٥٩
أنظر : السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع / ٢٤ ، جزء / ١ ، ص ١٠٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذكر فى الشهادتين

(٣١) **والشهادتان** فى جوهرهما ومضمونهما ذكر .

فالشهادة الأولى بأن " **لا إله إلا الله** " تنطوى على ذكر الألوهية والربوبية بحقائقها المتضمنة : أسماء الذات ، وأسماء الصفات ، وأسماء الأفعال **وهذه الشهادة تنشئ التسبيح والتهليل ، والتحميد ، والتكبير ، والتمجيد، وما إلى ذلك من الأذكار الربانية .**

والشهادة الثانية بأن "**محمد رسول الله**" ذكر للواسطة [الوسيلة] التى إختارها رب العباد لإيصال الهدى للناس ، وهى بعث الرسل وإنزال الكتب وسيدنا محمد هو خاتم النبيين وإمام المرسلين : النبى الأمى الصادق الأمين . **وهذه الشهادة تنشئ الصلاة والسلام عليه وآله وصحبه : وهى دعاء له ، والشهادتان ذكر باللسان والقلب .**

(٣٢) والمعلوم أن لكل عبادة مأمور بها نوافل تطوعاً ، من نوعها أو ما يشابهها

- فنفل الصلاة صلاة : سنن الصلاة وتطوع بالصلاة ، والدعاء .
- ونفل الزكاة زكاة : صدقات ، وحسن خلق ، وتعليم للخلق . . . الخ
- ونفل الصيام صيام : وإقلال من الطعام ، وتورع . [٢٠]

---

[٢٠] - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص :[**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ فَقَالَ : إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :لَاأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**] [جزء من حديث فى صوم التطوع]

أنظر : إبن حجر العسقلانى، فتح البارى، المرجع/١١،جزء ٤ ، ص ٢٢٠ ، حديث/١٩٧٦

أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع/١٢ ، جزء/٨ ، ص ٣٩، ٤٠، ٤١

أنظر : أبى حامد الغزالى ، إحياء علوم الدين ، المرجع /٤٨ ، جزء / ١ ، ص ٢٣٨

أنظر : إبن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع/٢٨، جزء/٨ ،ص ٥٥٧ ،حديث٢٤١٤٨

أنظر : جلال الدين السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع / ٢٤ ، ص ٥٠ ، جزء / ١

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**] ، أخرجه الإمام أحمد ومسلم واللفظ له والبخارى والترمذى وإبن ماجه عن إبن عمر رضى الله عنهما، كماأخرجه الإمام أحمد ومسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى . وأخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وإبن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنهم أجمعين .

أنظر : ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع/١١، جزء/٩ ، ص ٥٣٦ ، حديث/٥٣٩٤

أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع / ١٢ ، جزء / ١٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ونفل الحج حج : وإعتمار ، وإستحضار لمعانيه الإيمانية باللسان والعمل .
ـ ونفل الشهادتان : دوام النطق بهما، وإستحضار معانيهما فى القلب والعقل والنفس والجسد : أى كل طرق الذكر.

(٣٣) ولايتهاون أحد بأهمية الكلمة ولا بذكر اللسان .
فما الشهادة إلا الكلمة الطيبة المشرفة التى تنقل صاحبها من الكفر والضلال إلى الهدى والرشد وإلى الجنة ، ولو بعد حين . فبها يخرج الناس من النار ، وبها يدخلون الجنة .

قال صلى الله عليه وسلم :

{ يخرج من النار من قال : لاإله إلاالله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النارمن قال : لاإله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النارمن قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه ما يزن من الخير ذرة } {٢١}

وقال صلى الله عليه وسلم :

**{ يُصَاحُ بِرَجُلٍ من أُمَّتِى يَومَ القِيَامَةِ عَلى رُؤوسِ الخَلائق فَيُنشَرُ لَهُ تِسعَةً وتِسعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يقولُ اللهُ عز وجلَ هَل تُنكرُ مِن هَذا شَيئا ؟ فَيَقولُ لاياربِ ، فَيَقول :أظلَمَتك كَتَبَتِى الحَافِظُونَ ؟
ثم يقول : أَلَكَ عَن ذَلكَ حَسَنَة ؟ فَيهابُ الرَّجُل فَيَقول : لا، فيقول : بَلَى إن لَك عِندَنا حَسَنَاتٍ وَأَنَّهُ لا ظُلمَ عَليكَ اليوم ، فَتُخرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فيهَا : أَشهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدا عَبدَه وَرَسُولُهُ ، قَالَ : فَيَقول يَارَبِ مَا هَذهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذهِ**

{٢١) ـ أخرجه الإمام أحمد والبخارى واللفظ له ومسلم والترمذى والنسائى عن أنس رضى الله عنهم أجمعين
أنظر : بن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع /١١ ، جزء / ١٣ ، ص٣٩٢ ،٣٩٣ ، جزء من حديث رقم / ٧٤١٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السجلات ؟ فيقول : إنك لا تُظلم فتُوضع السجلاتُ فى كفّة والبطاقة فى كفّة ، فطاشت السجلاتُ وثقلت البطاقة } (٢٢)

عن أبى ذر قال : قال صلى الله عليه وسلم :

{ مَا من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلتُ وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؛ قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؛ ثلاثا ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر قال فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبى ذر } (٢٣)

(٣٤) وكلمة الكفر أو المعصية عظيمة الأثر أيضاً، عليها حساب شديد وعذاب أليم . قال تعالى :

{ كَبُرَت كَلِمَةً تخرُجُ مِن أفواهِهِم إن يَقُولُونَ إلاكذبا ـ١٨/ الكهف٥}

وقال صلى الله عليه وسلم ، لمّا سأله معاذ بن جبل رضى الله عنه :

{ ألا أُخبرُكَ بملاك ذلكَ كله ؟ قُلتُ بَلىَ ، فأخذَ بلسانه فقالَ : تكُف عَليكَ هَذا قُلتُ : يَا نَبِي اللهَ وإنّا لمؤاخَذُونَ بمّا نَتكَلّمُ به ؟ قالَ : ثكلتكَ أمُكَ يَا مُعَاذ ، وَهَل يُكبّ النّاسَ عَلى وُجُوهِهِم فِي النّارَ إلا حَصَائِدَ ألسِنَتِهِم } (٢٤)

---

(٢٢) ـ أخرجه البخارى والحاكم وإبن ماجه واللفظ له عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم أجمعين كما أخرجه الإمام أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى عن إبن عمر مع إختلاف فى اللفظ .

أنظر : سنن إبن ماجه ، المرجع / ١٤ ، جزء / ٢ ، ص ١٤٣٧ ، حديث / ٤٣٠٠

أنظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع / ٢٥ ، جزء / ٣ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

أنظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع / ١٨ ، جزء / ١ ، ص ٦ بلفظه .

(٢٣) ـ أخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم واللفظ له وإبن ماجه عن أبى ذر رضى الله عنهم أجمعين .

أنظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع / ١٢ ، جزء / ٣ ، ص ١١٤

أنظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع / ١٢ ، جزء / ٢ ، ص ٩٤

(٢٤) ـ أخرجه الإمام أحمد والترمذى والحاكم وإبن ماجه والبيهقى .

أنظر : الإمام النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع / ٢٥ ، جزء / ٣ ، ص ١٨ ، ١٩

أنظر : الإمام النووى ، رياض الصالحين ، المرجع / ٢٢ ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

أنظر : سنن إبن ماجه ، المرجع / ١٤ ، جزء /٢ ، ص ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، جزء من حديث / ٣٩٧٣

{ إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه } (٢٥)

حقيقة مهمة

(٣٥) والأصل أن النطق بهاتين الشهادتين لابد أن يصاحبه أو يسبقه الإدراك لما تعنيه من معانى والقناعة بهما .
بل ويشترط أيضاً حضور المعنى فى الوعى والشعور قلباً وعقلاً حين النطق بالشهادتين وإلا كان ناطقاً ومتكلماً بما لا يقصد .

كما أن هذا النطق بالشهادة إما أن يكون حقيقة فى الوعى فيكون المرء صادقا عقلاً وقلباً ، وإما أن يكون بلا قناعة ولا إستحضار فى الوعى فيكون كذباً ونفاقاً .
وفى حالة النطق بالشهادتين على إيمان بهما إما أن يؤيد سلوكه هذا التلفظ بالشهادتين فيكون إيمانا كاملاً ، وإما أن يكون مع إختلاف فى السلوك فيكون إيمانا ناقصاً .

(٣٦) والحقيقه أن مبنى الإسلام كله وليس الشهادتين فقط مؤسس على هذا الإدراك والقناعة والحضور لجلال الألوهية وعظمة الربوبية فى الوعى والشعور.
إذ لا يتخيل صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج ولا فعل من الأفعال بدون نوع من الإدراك للألوهية والتسليم لها ، والقناعة بما تعنيه ، وتواجد ذلك كله فى الوعى وللشعور بصورتيه : العقلية والقلبية { الوجدانية } .

---

(٢٥) ـ أخرجه الإمام مالك ، وأحمد فى مسنده ، والترمذى ، والنسائى ، وإبن حبان ، والحاكم واللفظ له عن بلال بن الحارث ، وأخرجه الحاكم بروايات كثيرة .
أنظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع / ١٨ ، جزء / ١ ، ص ٤٥ ، ٤٦
أنظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع / ٢٥ ، جزء / ١ ، ص ٣٠١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشهادتان حين النطق بهما " ذكر لله " . وحين إستحضار معناهما في القلب والعقل " ذكر لله " وحين التفكر والتدبر في حقيقتهما وأبعادهما " ذكر لله " وحين تنفيذ ما يترتب عليهما من أعمال سلوكية " ذكرلله " وتأكدها في الروح " ذكرلله " وأصل الذكر في الشهادتين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ جَدِدوا إيمانَكُم : أكثِرُوا مِن قولِ لا إلهَ إلاّ اللّه } {٢٦}

وكذلك نقلهما " ذكر لله " ، سواء بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ، أو التفكر والتأمل في معاني هذا التسبيح والتهليل ، وتكرار التلفظ بهما لتأكد المعنى ورسوخه، ودوام حضور العبد مع ربه ، والهروب من النسيان والغفلة هو ذكر الله .
والصلاة والسلام على رسول الله ودراسة سيرته وشخصيته وصفاته ، ومدحه والثناء عليه والدعاء له ذكر لله تعالى .
وكلها واجبات تترتب على الشهادتين بنفس المنطق وبنفس القياس .

---

(٢٦) ـ حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين .
أنظر : جلال الدين السيوطي ، الجامع الصغير ، المرجع / ٢٤ ، جزء / ص ١٤٣
أنظر : بن حسام الدين الهندي ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء / ١ ، ص ٤١٦ ، حديث ١٧٦٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلاصة القول فى هذا الفصل

(٣٧) ويتلخص ما قلناه وأثبتناه فى هذا الفصل فى عدة نقاط :

أ ـ أن ما يسمى بالأركان الخمسة للإسلام ، ليس هو الإسلام وإنما مجرد الأركان الأساسية ، والتى قد ينظر إليها كالحد الأدنى المطلوب من كل مسلم .

ب ـ أن فى ثنايا هذه الأركان تظهر معانى جديدة ومبانى هامة هى فى صلب المأمورات والتكوينات الإسلامية .

ج ـ وأن هذه المبانى والتكوينات والأركان ، هى نفسها ذكر وأن المقصود منها إقامة الذكر . وأن الذكر يتخلل كل حركة وجزء منها ، حتى ليبدو أنها تفريعات على مفهوم الذكر .

د ـ أن أصل الذكر فى الشهادتين ، وهما أصل الإسلام كله . وأن تكرارهما يجدد الشعور الإيمانى ، كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا يكون أول الدخول فى الإسلام تذكر وذكر بالشهادتين .

وعماد الدين ، الصلاة ، تقام لذكر الله ، والذكر فيها بالقرآن والتسبيح . والدعاء بها وجوهرها .

والزكاة ذكر بالعمل بعد تصحيح النية .

والصيام ذكر مستمر طوال فترة الصيام . وذكر بالنية قبل البدء بالصيام .

والحج رحلة ذكر من بدء التلبية بالإحرام . فالذكر فى عرفة . وبعد الإفاضة من عرفة ، والذكر فى منى والذكر فى الطواف والسعى .
وأصول الأمر كله فى النية . وهى ذكر لله وتذكر له .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانـــى

هل الذكر جماع العبادات وأفضلها

- أولاً : الـذكـر أفضـل العبادات
- ثانياً : ولـذكـر اللـه أكبر
- ثالثاً : الذكر جماع العبادات
- رابعاً : خلاصة القول فى هذا الفصل

(٣٨) يعلم المسلمون جميعا أن أركان الإسلام الخمسة هى الأساس لدين المسلم ، وأول ما يتوجب الوفاء به . وفى صحيح السنة ما يشير إلى أن الإتيان بها يسبب الفلاح ويدخل الجنة : فعن طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس فقال :

{ يارسول الله أخبرنى ماذا فَرَضَ الله علىَّ من الصلاة فقال الصلواتُ الخمسة الاأن تطوع شيئا . فقال : أخبرنى بما فرض الله على من الصيام ؟ قال شهرُ رمضانَ الاأن تَطَوَّعَ شيئا قال: أخبرنى بما فرض الله علىَّ من الزكاة ؟ قال : فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام . قال : والذى أكرمك لا أتطوع شيئا ، ولا أنقص مما فرض الله علىَّ شيئا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح إن صدق ، أو قال دخل الجنة إن صدق } {٢٧}

ولكن قليلا من التأمل ، يظهر أن الوفاء بهذه الأركان بالقدر المفروض منها هو الحد الأدنى المطلوب من المسلمين .
وأن الوفاء بثلاث منها ـ الشهادتين والصلاة والزكاة ـ يثبت المرء الإسلام فى مواجهة المجتمع فلا يحل دمه وعرضه . {٢٨}
فالقول بأنها أهم ما فى الإسلام قول صحيح : بمعنى أنه بدون الشهادتين لا يكون المرء مسلما أبدا ، كما أن الصلاة هى عماد الدين كله . {٢٩}

وقد أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن :

{ أول مايُحَاسَبُ به العبد يوم القيامة الصلاة فان صَلُحَتْ صَلُحَ سائر عمله وان فسدت فسد سائر عَمَله } (٣٠)

{٢٧} ـ انظر : بن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع ١١ ، جزء/ ١٢ ، ص ٣٣٠ ،حديث رقم/٦٩٥٦
انظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع /١٢ ، جزء / ١ ، ص ١٧٤ـ ١٧٦
انظر : ابن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع /٢٨ ، جزء / ١، ص ٢٧٨ ، حديث رقم / ١٣٧٤ مع اختلاف يسير فى اللفظ .

{٢٨} ـ انظر : الإمام النووى ، الأربعين النووية ، المرجع/٢١ ، الحديث الثامن ، ص٣١

{٢٩} ـ انظر : الإمام النووى ، الأربعين النووية ، المرجع/٢١ ، حديث رقم / ٢٩ ، ص ٦٣
انظر : الحافظ المنذرى ، الترغيب والترهيب ، المرجع/٢٦ ،جزء/١ ، ص٣٢١

{٣٠} ـ حديث حسن أخرجه الطبرانى فى الأوسط .
انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع /٢٨ ، جزء / ٨ ، ص٣ ، حديث رقم ٢١٦١٥
انظر : الحافظ المنذرى ، الترغيب والترهيب ، المرجع/٢٦ ، جزء / ١ ، ص ٣٢١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أن الأفضلية بين المسلمين تتوقف على ما يأتون به من أعمال الإسلام علاوة على هذه الشروط والفروض الأساسية .

والسؤال هنا :أى الأعمال أفضل بالنسبة للمسلمين الذين يقومون بالفعل بهذه الأساسيات الخمس ؟ وهل تعتمد هذه الأفضلية على جمع من الأعمال يؤلف بينها ، أم يمكن لعنصر واحد أن يكون جماع هذه الأفضلية ومسببها . وما هو موقع الذكر بالذات فى هذه الأفضلية .

وفى بحث هذين الأمرين ، الأفضلية والأجمعية ، تسعفنا السنة النبوية بالتفصيل المطلوب : فهى تفسر آيات الكتاب الحكيم وتفصل معناها التنفيذى :

أولا : الذكر أفضل العبادات ؟!

(٣٩) يفهم من الآيات والأحاديث أن الذكر ليس فقط عنصرا أو جانبا من المأمورات ، ولا هو فقط قاسم مشترك فيها ، وانما قد يكون أفضلها . ومن الأحاديث التى ذكرت ذلك صراحة :

الحديث الأول : عن أبى سعيد الخدرى قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العباد فقال :

{ أفضل العباد درجة عند الله يوم القيامة الذاكرون الله كثيرا، قيل ومن الغازى فى سبيل الله قال :لوضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة } (٣١)

---

(٣١) ـ أخرجه الإمام أحمد ، و الترمذى و أبو يعلى وابن شاهين فى الذكر عن أبى سعيد الخدرى .
انظر : بن حسام الدين الهندى ، المرجع/٢٨ ، جزء/ ١ ، ص ٤٢٧ حديث رقم/١٨٤٥
انظر : بن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع/٤١، ص ٣٤
انظر : بن رجب الحنبلى ، جامع العلوم والحكم ، المرجع /٣٣ ، ص /. ٢٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديث الثانى : وكذلك سُئل النبى صلى الله عليه وسلم أى المجاهدين أعظم أجرا وأى الصائمين أعظم أجرا وكذلك عن الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم :

{ أكثرهم لله ذكرا ، فقال الصديق أبو بكر رضى الله عنه : ذهب الذاكرون بكل خير فقال صلى الله عليه وسلم : أجل ، "وفى رواية أخرى " أجل ألم تسمع قوله تعالى ولذكر الله أكبر } {٣٢}

(٤٠) والذى يفهم من هذين الحديثين أن الذاكرين هم أفضل منفذى الشعائر والواجبات وأنهم يذهبون بالخير كله .
وقد يكون فى هذا المعنى بعض المفاجأة لعامة الناس ، من حيث أن الذكر الذى يبدو عبادة سهلة هينة ، يفضل كل أعمال الإسلام الأخرى .
ومع ذلك فان فى آيات القرآن مايدل على أكثر من ذلك . يقول الحق تعالى:ـ

{ وهو الذى جَعَلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أراد أن يَذَّكَّرَ أو أراد شُكورا ـ ٢٥ / الفرقان ٦٢ }

فقوله تعالى ، جعل ، يتضمن حكمة ايجاد الليل والنهار ، وأن تخالفهما (أى تعاقبهما) لاحداث الذكر أو الشكر أو كلاهما .
والآية ، إما أن تعنى الحصر ، بمعنى أن تخالف الليل والنهار إنما جعله الله تعالى للذكر والشكر وليس لشىء آخر .
وإما أن تعنى أنه تعالى جعل فى هذا التخالف بين الليل والنهار الطريق اليه سبحانه بالذكر والفكر .

وفى كلا المعنيين ، يصبح الذكر والشكر ، هما المقصودان الأساسيان فى هذا التخالف .
وهذا أمر لا يثير دهشة ولا عجبا . فالله ـ جل جلاله ـ جعل الشكر نقيض الكفر فى كثير من الآيات . والإيمان به هو الشكر : اذ الإيمان به يستتبع

{ ٣٢ } ـ أخرجه الأمام أحمد والطبرانى عن معاذ رضى الله عنه .
انظر : بن حسام الدين الهندى، الكنز ، المرجع /٢٨ ، جزء/١ ، ص ٤٢٨ ، حديث ١٨٤٦
انظر : ابن قيم الجوزيه ،مدارج السالكين ، المرجع /٤٢ ، جزء ، ص ٤٢٦
انظر : ابن رجب الحنبلى ، جامع العلوم والحكم ، المرجع /٣٣ ، ص ٥٣٧ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبادته والتوجه اليه بالأعمال وهذا شكر بلا نزاع . والإيمان به وهو عكس الكفر ـ لا يمكن أن يتحقق بغير ذكره ، والإنتباه الى عظمته وقدرته وحكمته وهذا يعنى استحضار وجوده ودلائل ذلك الوجود والإستحضار فى الوعى ، هو لب الذكر .

(٤١) ولهذا فإن ما تشير به الآيات والأحاديث من أن الذكر هو أفضل العبادات لا عجب فيه . فإن من الآيات ما يشير الى أكثر من ذلك بكثير :أن الذكر هو مقصود العبادة :

الصـلاة : مثل قوله تعالى :

{ وأقِمِ الصـلاةَ لِذِكْرِى ـ ٢٠ / طه ١٤ }

ويقول ابن القيم الجوزية ، بخصوص " اللام " فى قوله " لذكرى " : " الغالب أنها لام التعليل ، أى : أقم الصلاة لتذكرنى بها " [٣٣]

والعبد يذكر الله بصلاته وفى صلاته أيضا : فمجرد إقامة الصلاة ذكر لله ـ وهذا ما نسميه ذكر الله بالصلاة . كما أن الصلاة تتضمن كلمات ذكر وأفعال ذكر ، فيكون العبد ذاكرا لله فى صلاته .
فالصلاة تبدأ باستحضار المقصود ـ أى تحقق بالنية ـ ثم تكبيرة الإحرام التى تعنى عدم الإلتفات إلى غير الله ، وحصر كل أعمال العبد وأقواله خلالها فى مناجاة الله وعبادته إنما هى ذكر لله وفكر فى تركيز الهمة وانتباه للمذكور .

الصـيام : وفى قوله تعالى :

{ شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنَ هُدىً للناسِ وبَيِّنَات من الهدى والفرقان فمن شَهِدَ منكُمُ الشهرَ فَلْيَصُمْهُ ومن كانَ مريضا أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيام أُخَرَ يريدُ اللهُ بكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكُمُ العسرَ ولتُكْمِلُوا العِدَّةَ ولتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هداكُمْ ولعلكم تشكرون ـ ٢/ البقره ١٨٥ }

جعل الله الصيام وإكماله معلق بأمرين : تكبير الله على ما هدانا اليه من الحق ، وشكره سبحانه على نعمه التى لا تعد و لا تحصى .

[٣٣] ـ انظر : ابن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع / ٤١ ، ص ٦٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحج : و فى قوله تعالى :

{ ولكُلِّ أُمَّة جَعَلْنَا مَنْسَكًا ليَذْكُرُوا اسمَ الله على ما رَزَقَهُمْ من بهيمةِ الأنعام ـ ٢٢ / الحج ٣٤ }

وقوله صلى الله عليه وسلم :

{ إنما جُعلَ رميُ الجمار والطواف والسعى بين الصفا والمروة ، لإقامة ذكرِ الله لا لغيره } { ٣٤ }

تأكيد بأن الحج ومناسكه إنما هو لإقامة ذكر الله ، وذكر اسمه العظيم المبارك ، أي لحدوث الصلة بين الذاكر وربه فلا غرابة إذن أن يكون الذكر جماع العبادات وأفضلها .

وقد صح عنه ، صلى الله عليه وسلم القول بأنه :

{ ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد إلا أن تَضْرِبَ بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع } {٣٥}

الحديث الثالث : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

(ذَهَبَ أهل الدُّثُور بالدرجات العُلَى والنعيم المقيم : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال : يحجون ويعتمرون ويجاهدون ، ويتصدقون فقال : ألا أعلمكم شيئا تُدْرِكُونَ به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا

---

(٣٤) ـ أخرجه أبو داود ، والحاكم عن عائشة رضى الله عنها واللفظ له . حديث صحيح . وقال صحيح على شرط مسلم والبخارى ووافقه الذهبى على ذلك فى تلخيص المستدرك وصححه بأسفل الصفحه ذاتها.

انظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع / ١٨ ، جزء / ١ ، ص ٤٥٩

انظر : السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع /٢٤ ، جزء / ١ ، ص ١٠٣

(٣٥) ـ أخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل ، كما أخرجه ابن أبى شيبه والطبرانى .

انظر : بن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع / ٤١ ، ص ٣٣

انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء/١ ، ص ٤٢٩ ، حديث ١٨٥١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله . قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون، فرجع فقراءُ المهاجرين الى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضلُ الله يُؤْتِيهِ من يشاء } (٣٦)

(٤٢) أما الحديث الثالث فتظهر منه عدة أمور :

الأول : قيام الذكر بديلا عن الحج والعمرة والصدقة والجهاد . ويقول الإمام ابن القيم فى ذلك ، تعليقا على الحديث :
" فجعل الذكر عوضا لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر " (٣٧)

الثاني : أن ذكر الله بذاته يسبب سبق الذاكرين على غير الذاكرين، ولا يكون أحد أبدا أفضل من الذاكرين ، الا من فعل فعلهم .
وهذا تأكيد للأفضلية والأسبقية المطلقة ، كما يتبين من نهاية الحديث : حيث لم يخبرهم صلوات الله وسلامه عليه بأمر جديد يعوض لهم قيام الأغنياء بالذكر لما سمعوا بعظيم قدر الذكر والذاكرين .
وهذا المعنى مكون من شقين : السبق والأفضلية . وقد تأكدت الأفضلية من الحديث الأول أعلاه ، ومما يدور فى فلكه من الأحاديث النبوية الصحيحة .

(٤٣) وأما سبق بعض العباد لغيرهم من المسلمين فإنه قد ينشأ من عدة احتمالات :
ـ إما لقلة الذنوب نتيجة للتقوى والورع .
ـ وإما بمحو هذه الذنوب بالتوبة والإستغفار .
ـ وإما بكثرة الأعمال الصالحات التى ترجح كفة الحسنات .
والظاهر أن سبق الذاكرين لغيرهم مسبب بهذه الأوجه الثلاث معا .

---

(٣٦) ـ أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة، والإمام البخارى ومسلم .
انظر : التيهانى ، الفتح الكبير ، المرجع /٢٥، جزء / ١ ، ص ٤٨١
انظر : الإمام النووى ، رياض الصالحين ، المرجع /٢٢ ، ص٣٩٣ ، حديث ١٤١٨
انظر : بن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع/١١ ، جزء/٢ ، ص ٣٢٥ ، حديث رقم/٨٤٣
انظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع /١٢ ، جزء / ٥، ص ٩٢ ـ ٩٣ ، مجلد/٢
(٣٧) ـ هذا قول ابن القيم ، الوابل الصيب ، المرجع /٤١ ، ص ٦٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* فذكر الله يعمر القلوب بحبه الى الحد الذى ينفر العبد ويبعده عن الذنوب والآثام : وهذا مدخل التقوى والورع : فالإنشغال بالحبيب وذكره ، يعنى الغفلة عن العدو وكراهيته .

تعصى الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمرى فى القياس بديع
ان كان حبك صادقا لأطعته * إن المحب لمن يحب مطيع

* * وذكر الله عظيم الثواب عند رب العزة : قال صلى الله عليه وسلم :

{ كلمتان خفيفتان على اللسان ،ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان الى الرحمَن : سبحَان الله وبحمده سبحان الله العظيم } {٣٨}

* * * وذكر الله تعالى يمحو الذنوب والآثام ، التى تشد صاحبها الى الأرض وتثقله عن النهوض الى الله : ومن رحل الى ربه خفيفا ، طار عاليا .

قال صلى الله عليه وسلم :

{ سَبَقَ المُفَرِّدون (ثلاثا) : الذين يَهْتَرون فى ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامةِ خفافا } {٣٩}

وقال صلى الله عليه وسلم :

{ ان لكل شيء صقَالة (سقالة) وأن صقَالةَ (سقَالةَ) القلوب ذكر الله وما من شيء أنجى من عذابَ الله ولو أن تضرب بسيفك حتى ينقطع } {٤٠}

{٣٨} ـ أخرجه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .
انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع /٢٨، جزء / ١ ، ص ٤٦٢ ، حديث ٢٠٠٧
انظر : بن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع / ١١ ، جزء/١١ ، ص ٢٠٦ ، حديث ٦٤٠٦
انظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع /١٢ ، جزء / ١٧ ، ص ١٩

{٣٩} ـ أخرجه البخارى ومسلم ، والحاكم . عن أبى هريرة ، والطبرانى عن أبى الدرداء .
انظر: بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء /١ ، ص ٤١٧ ، حديث ١٧٧٣

{٤٠} ـ أخرجه البيهقى عن إبن عمر رضى الله عنهما .
انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء /١ ، ص ٤٢٨ ، حديث ١٨٤٨
انظر : بن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع / ٤١ ، ص ٣٥ـ ٣٦
انظر : السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع / ٢٤ ، جزء / ١ ، ص ٩٧

الحديث الرابع : عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا: بلى يارسول الله قال : ذكر الله تعالى } {٤١}

(٤٤) أما الحديث (الرابع) ففيه تأكيدات بالغة الخطورة :

(١) ـ إن ذكر الله خير أعمال العباد . وهذه " خيرية مطلقه " بمعنى أنها لا يفضلها عمل آخر .

(٢) ـ إن ذكر الله خير من إنفاق الذهب والفضة ، أى من الزكاة والصدقات وسائر الإنفاقات .
وهذا المعنى يؤكد " الخيرية المطلقه " أعلاه . وقد وردت فى ذلك ثمانية أحاديث يقوى بعضها بعضا ، منها :

ـ { الذكر يَفْضُلُ على النفقةِ فى سبيلِ اللهِ مائة ضعف } {٤٢}

{٤١} ـ رواه الترمذى وقال حسن صحيح ، والحاكم فى المستدرك وقال إسناده صحيح وصححه السيوطى ، وصحح الذهبى إسناده فى تلخيص المستدرك ، كما أخرجه الإمام أحمد فى المسند ومالك فى الموطأ وابن ماجه والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان . وأخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ ايضا وقال المنذرى إسناده جيد . وإسناده حسن عند أبى الدرداء . وكذلك قال الهيثمى واختاره ابن تيمية فى الكلم الطيب وصححه الشوكانى فى تحفة الذاكرين وعلق عليه باستشكال بعض أهل العلم العلم فى تفضيل الذكر على الجهاد .
انظر : الإمام النووى ، رياض الصالحين ، المرجع/٢٢ ، ص ٣٩٨ ، حديث رقم/١٤٤١
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع /٢٥ ، جزء/١ ، ص٤٨١
انظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع/١٨ ، جزء/١ ، ص٤٩٦ ، وبهامشه تصحيح الذهبى .
انظر : الشوكانى ، تحفة الذاكرين ، المرجع/٣٠ . ص٩
انظر : المباركفورى ، تحفة الأحوذى ، المرجع/١٣ ، جزء/٩ ،ص٣١٧، حديث رقم/٣٤٣٧

{٤٢} ـ أخرجه الطبرانى عن معاذ بن جبل ، والطيالسى عن أبى موسى ، وأبو الشيخ عن أبى هريرة ، والطيالسى عن عباس ، وابن شاهين فى الترغيب مع اختلاف فى اللفظ .
انظر ابن حسام الدين الهندى ، الكنز، المرجع /٢٨ جزء / ١ ، ص ٤٢٢ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ حديث رقم / ١٨٠٤ ، ١٨٥٨ ، ١٨٥٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ **{ ما صدقة أفضل من ذكر الله }** {٤٣}

(٣) ـ وان ذكر الله خير من الجهاد . وفى ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذين العملين ـ الجهاد والصدقة ـ على وجه التخصيص بعد تعميمه القول زيادة تأكيد لما دلّ عليه قوله : (**ألا أنبئكم بخير أعمالكم**) .

وهذا التخصيص والتأكيد فى ذاته يعد عند العلماء كما يقول الإمام الشوكانى " مبالغة فى النداء بفضله عليها ودفع لما يظن من أن المراد بالأعمال هنا غير ما هو متناه فى الفضيلة وارتفاع الدرجة ـ كالجهاد والصدقة ـ بما هو محبب الى قلوب العباد فوق كل نوع من أنواع المال وهو الذهب والفضة " {٤٤}

(٤) ـ وإن ذكر الله تعالى أزكى أعمال العباد من وجهة نظر الله . والزكاء هو النماء والبركات ومعنى هذا أن الذكر (عند مليككم) أفضل من جميع الأعمال التى يقوم بها العباد وأكثرها نماء وبركة .

(٥) ـ وإن الذكر أيضا . أرفع هذه الأعمال درجة عند رب العزة : هذا إما أن يعنى عظمة العمل وعلو مقامه ، وإما أن يعنى عظمة الثواب .
فهذا الحديث الثابت الصحة بيان آخر بالأفضلية المطلقة يؤكد أن أفضل العبادات بعد الوفاء بأمورات الدين الأساسية هو ذكر الله .

وهذا المعنى يبعث فى النفس التساؤل عن حقيقة معنى " الذكر " واستعمالات هذه الكلمة حتى أنه تعالى سمى كلامه الأزلى ـ القرآن ـ الذكر. قال تعالى :

{ إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكرَ وإنا لَهُ لَحَافِظُون ـ ١٥ / الحجر ٩ }

{٤٣} ـ أخرجه الطيالسى عن ابن عباس ، كما أخرجه أبو الشيخ عن أبى هريرة ، وابن شاهين فى الترغيب مع اختلاف فى اللفظ .
انظر: بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع / ٢٨ ، جزء /١ ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٣. حديث رقم / ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، ١٨٥٩

{٤٤} ـ انظر : الشوكانى فى تحفة الذاكرين ، وإقرأ الصفحات ٩ـ ١٢ فى استشكال بعض أهل العلم فى تفضيل الذكر على الجهاد والصدقة . المرجع /٣٠ ، ص ١٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا : ولذكر الله أكبـــر

(٤٥) ولا شك أن قوله تعالى " ولذكر الله أكبر " يثير تساؤلات عديدة وقد أثار بالفعل مناقشات واسعة .

يقول ابن قيم الجوزية :
" وأما الأخبار عنه بأنه أكبر من كل شئ فقوله تعالى :

{ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ . وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ـ ٢٩ / العنكبوت ٤٥ }
وفيها أربعة أقوال :

أحدهما : أن ذكر الله أكبر من كل شئ . فهو أفضل الطاعات . لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره فهو سر الطاعات وروحها .

الثانى :أن المعنى : انكم اذا ذكرتموه ذكركم . فكأن ذكره لكم أكبر من ذكركم له . فعلى هذا : المصدر مضاف الى الفاعل وعلى الأول : مضاف الى المذكور.

الثالث : أن المعنى : ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر . بل اذا تم الذكر : محق كل خطيئة ومعصية . هذا ما ذكره المفسرون .
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول معنى الآية أن فى الصلاة فائدتين عظيمتين :

أحدهما : نهيها عن الفحشاء والمنكر .

والثانية : اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له . ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر . انتهى [٤٥]

فيقول ابن زيد وقتادة ، معناها لذكر الله أكبر من كل شئ . وقيل لسلمان أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن (ولذكر الله أكبر) .
ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء المتقدم " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ... الحديث "
وكذلك ذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه سئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر " . انتهى [٤٦]

---

[٤٥] ـ ابن قيم الجوزيه ،مدارج السالكين ، المرجع /٤٢ ، جزء /٢ ، ص ٤٢٦
[٤٦] ـ ابن قيم الجوزيه ، الوابل الصيب ، المرجع /٤١ ، ص ٦٨

(٤٦) والذى يلفت النظر أن الله تعالى يقول :

{ وإنْ من شئ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكِنْ لاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ـ ١٧ / الإسراء ٤٤ }

فهذا العمل (أى التسبيح) هو الوحيد ـ فيما نعلم ـ الذى أثبته الله تعالى لجميع الكائنات على الإطلاق . بحيث أصبح ذكره بالتسبيح هو الفعل المشترك فى كل الموجودات بلا استثناء . فقد ورد عن الملائكه والملأ الأعلى :

{ يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ ـ ٢١ الأنبياء ٢٠ }

وهاهى بقية الموجودات (ان من شئ) تسبح بحمده . فالذى يتبقى بعد ذلك هم المكلفون من إنس وجن . { ٤٧ }
وهؤلاء مطالبون بدوام ذكره وتسبيحه .

{ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُم أو أشَدَّ ذِكْرا ـ ٢ / البقرة ٢٠٠ }

{ ياأيها الذينَ آمنوا اذكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصيلا ـ ٣٣ / الأحزاب ٤١ . ٤٢ }

فكأن الأمر بالذكر هنا ، حتى يكون الكون كله فى تسبيح للواحد الأحد . ولا نكون نحن المكلفون وحدنا الشواذ فى الكون الفسيح .

والتساؤل هنا : اذا كان الله قد اختار " ذكره " ليكون هو السمه الرئيسيه للكون كله ، فهل ياترى يكون هناك ما هو أعلى منه ولم يختاره الله تعالى ؟ أفلا يكون اختياره هذا واخبارنا إياه بهذا الإختيار ارشادا لنا بأن الذكر هو أعلى المطلوبات على الإطلاق ! وكل الكائنات قامت بالكلمة :

{انماقولنالشىء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون ـ ١٦/النحل . ٤٠}

فكلمة " كن " هى التى قامت بها الموجودات : والكون كلمة الله بالإيجاد . ولا عجب أن يكون ذكره سبحانه وتعالى بالكلمة أعلى العبادات . والله تعالى أعلم .

---

(٤٧) ـ يثبت تكليف الجن من قوله تعالى :
(يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ـ ٦ / الأنعام ١٣٠)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا : الذكر جماع العبادات

(٤٧) وبعد ما تبين لنا أفضلية الذكر وخيريته على الأعمال الأخرى، تواجهنا قضية الأجمعية . والظاهر من صحيح الأحاديث أن الذكر جماع للعبادات وينوب عنها ، بعد الإتيان بالفرائض الخمس التى هى الحد الأدنى الضرورى .

أ ـ عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه قال :

{ أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله أن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ ، فباب نتمسك به جامع ، قال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله . وفى رواية قال : ويكفينى يارسول الله ؟ قال : نعم ويفضل عنك } {٤٨}

فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن أمر واحد فى الدين يتمسك به رجل بسيط يتبين طريقه الى الله فى خضم الأوامر والنواهى الالهية، فأخبره عليه الصلاة والسلام بأن دوام الذكر ينوب عنه فى ذلك ، فيكون بديلا لها وعوضا عنها .

فهاهنا اشارة الى أن الذكر جماع كثيرمن أبواب الإسلام : فهو هنا " باب جامع"

(٤٨) وكذلك كان فى ارشاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى احلال الذكر محل تلاوة القرآن فى الصلاة ـ لمن لا يقدر على القرآن ـ اشارة الى البدلية ولكن ليس الى الأفضلية .

ففى فتوى للشيخ ابن تيميه يقول :

" فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر"

وفى الترمذى عن أبى سعيد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من شغله

{٤٨} ـ أخرجه الإمام أحمد بهذا اللفظ، . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وأبو نعيم فى الحليه والحاكم فى المستدرك وصححه وخرجه الترمذى وقال حسن غريب ، وخرجه إبن السنى والطبرانى وابن حبان عن معاذ بن جبل ، وصححه ابن رجب فى جامع العلوم والحكم ، والمنذرى فى الترغيب والترهيب والذهبى فى تلخيص المستدرك ، واعتمده بن القيم فى الوابل الصيب من الكلم الطيب .

انظر: بن حسام الدين الهندى ،الكنز، المرجع /٢٨ ، جزء/١ ، ص ٤١٤، حديث ١٧٥٢، ص/٤١٧ حديث رقم / ١٧٧٢، حديث ١٨٤١ ص ٤٢٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قراءة القرآن عن ذكرى ومسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " وكما فى الحديث الذى فى السنن فى الذى سأل النبى صلى الله عله وسلم فقال : انى لا أستطيع أن آخذ شيئا من القرآن فعلمنى ما يجزئنى فى صلاتى ، قال : " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولهذا كانت القراءة فى الصلاة واجبه . فإن الأئمة لا تعدل عنها الى الذكر الا عند العجز والبدل دون المبدل منه " انتهى {٤٩}

(٤٩) والظاهر من الايات والأحاديث أنه ليس من عبادة أخرى غير ذكر الله ، صرّح الشرع بأنها تحل محل غيرها من العبادات : ومقتضى ذلك إما أن لهذه العبادة خاصية هى لب العبادات الأخرى بحيث تغنى عنها .
أو أن هذه العبادة فيها المراد من جميع العبادات الأخرى بحيث يمكن أن تحل محلهن ، وأن تغنى عنهن اذا اقتضى الأمر .

(٥٠) وليس من عبادة أمر الحق ـ جل جلاله ـ بالدوام عليها فى كل الأحيان ، وكل الأماكن ، حتى فى الأسواق غير الذكر : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير . كتب الله له ألفَ ألفَ حسنة ، ومحا عنه ألفَ ألفَ سيئة ، ورفع له ألفَ ألفَ درجةٍ ، وبنىَ له بيتا فى الجنة } {٥٠}

{٤٩} ـ انظر ابن تيميه ، الفتاوى الكبرى ، المرجع / ٤٥ ، جزء /١ ، ص ٢٣٣

{٥٠} ـ أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، والحاكم ، وابن ماجه عن إبن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع /٢٥ ، جزء / ٣ ، ص ١٨٩
انظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع /١٨ ، جزء / ١ ، ص ٥٣٨
انظر : المباركفورى ، تحفة الأحوذى ، المرجع /١٣ ، جزء ٩ ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، حديث رقم/ ٣٤٨٨ ، ٣٤٨٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعا : خلاصة القول فى هذا الفصل

(٥١) فخلاصة القول إذن أن الذكر يفضل غيره من العبادات ، ويحل محلها إذا نشأت الضرورة لذلك، وفيه جماع العبادات كلها .

ولله در ابن القيم ، وهو يعبر عن الإتجاه العام لدى علماء الأمة ، بالبيان البليغ فيقول :

" والذكر منشور الولاية ، الذى من أعطيه اتصل ، ومن منعه عزل . وهو قوت قلوب القوم ، الذى متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا . وعمارة ديارهم ، التى إذا تعطلت عنه صارت بورا .
وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق وماؤهم الذى يطفئون به التهاب الحريق ، ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منهم القلوب . والسبب الموصل ، العلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيوب .

" إذا مرضنا تداوينا بذكركم : فنترك الذكر أحيانا فننتكس "

به يستدفعون الآفات ، ويستكشفون الكربات ، وتهون عليهم به المصيبات ، إذا أظلهم البلاء . فإليه ملجؤهم . إذا نزلت بهم النوازل ، فاليه مفزعهم .
فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون ، ورؤوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون ، يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا ، ويوصل الذاكر الى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورا .

وفى كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة . و " الذكر" عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة .
بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل حال : قياما، وقعودا ، وعلى جنوبهم .
فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب ، وهو عمارتها ، وأساسها وهو جلاء القلوب وصقالها . ودواءها اذا غشيها اعتلالها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلما إزداد الذاكر فى ذكره استغراقا : إزداد المذكور سبحانه محبة الى لقائه وإشتياقا .وإذا واظأ فى ذكره قلبه للسانه : نسى فى جنب ذكره كل شئ. وحفظ الله عليه كل شئ وكان له عوضا عن كل شئ .

به يزول الوقر عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظلمة عن الأبصار . زين الله به ألسنة الذاكرين . كما زين بالنور أبصار الناظرين . فاللسان الغافل : كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واليد الشلاء . وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ، مالم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصرى رحمه الله : تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء : فى الصلاة ، وفى الذكر ، وفى قراءة القرآن ، فإن وجدتم .... والا فإعلموا أن الباب مغلق .

وبالذكر يصرع العبد الشيطان . كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان .

قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب . فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان . فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسه الانسى .

وهو روح الأعمال الصالحة . فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذى لا روح فيه . والله أعلم " . انتهى [٥١]

---

[٥١] ـ انظر : ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، المرجع / ٤٢ ، جزء / ٢ ، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

مركزية الذكر والفكر فى الإســـلام

ـ أولا : مركزية الذكر والفكر فى الإسلام
ـ ثانيا : ماهية الذكر
ـ ثالثا : الذكر والفكر
ـ رابعا : خلاصة القول فى هذا الفـصل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥٢) النتيجة السابقة التى توصلنا إليها في الفصل السابق ، وهى أن ذكر الله قاسم مشترك فى العبادات والقربات ، وأنه مرادها ، وأنه أفضلها وجماعها ، تنشىء عدة تساؤلات :

الأول : إذا كان ذكر الله على هذه الأهمية ، فلابد أن له معنى أو معان ، وبعد أو أبعاد ، تفوق بكثير المعنى المألوف والدارج عند عموم الناس . فما هى طبيعة هذا الذكر ، وما معناه وماهيته ؟ وما هى أبعاده ؟

الثانى : إذا كان لذكر الله هذه الأهمية ، فلا بد أنه أساس فى القرآن والسنة ومراد لذاته فيهما . ولا يكون أساساً ومراداً لذاته إلا إذا حقق مطلباً أساسياً فى الدين . فما هو هذا المطلب وما علاقته بالذكر ؟

الثالث : وإذا كان الذكر مركزياً وهاماً فى لب الدين ، وقد ربطه الله تعالى فى آيات كثيرة بالفكر ، فما العلاقة بينهما وما دورهما فى الدين ؟
وأمثال ذلك من هذه التساؤلات . ونقول فى ذلك :

أولا : الطبيعة العامة للذكر

كلمة الذكر فى القرآن :

(٥٣) وردت كلمة " الذكر " ومشتقاتها فى القرآن بأوجه عديدة ، نذكر منها ، وليس كلها :

(١) ذكر اللسان :

{ فاذكروا اللهَ كَذكْرِكُمْ آباءَكُمْ أو أشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ الناسِ من يقول ربَّنا آتِنَا فى الدنيا ومالَهُ فى الآخرةِ من خَلاَق ـ٢/البقرة ٢٠٠ }

(٢) ذكر القلب مع اللسان أو بدونه :

{ والذينَ إذا فَعَلُوا فاحشَةً أو ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذكَرُوا اللهَ فاستغفروا لذُنُوبِهِمْ ومنَ يغفرُ الذنوبَ إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على مافعلوا وهمَ يعلمون ـ ٣/ آل عمران ١٣٥ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣) **العظة** ، وهى التنبيه على أمر ما وأحضاره فى ذهن المستمع :

{ فلما نَسُوا ماذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عليهم أَبْوَابَ كُلِّ شيءٍ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهُمْ بغتةً فإذا هم مُبْلِسون - ٦/ الأنعام ٤٤}

{ وَذَكِّر ، فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمنين - ٥١/ الذاريات ٥٥ }

(٤) **البيان** : وهو توضيح معنى واحضاره للوعى مفهوماً :

{ أَوَعَجِبْتُمْ أن جاءكُمْ ذِكْرٌ من رَبِّكُمْ على رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ولِتَتَّقُوا ، ولعلكم ترحمون - ٧/ الأعراف ٦٣ }

(٥) **الحديث** : أى ذكر الخبر عن شىء ما وتنبيه السامع إليه :

{ وقال للذى ظنَّ أنه ناجٍ منهُمَا اذْكُرْنى عند رَبِّكَ فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربِّهِ فَلَبِثَ فى السَّجنِ بِضْعَ سَنين - ١٢/ يوسف ٤٢ }

(٦) **القرآن** : وهو وسيلة العلم بالله وصفاته وأفعاله :

{ إنا نحن نَزَّلْنَا الذكرَ وإنا لَهُ لَحَافِظُون - ١٥/ الحجر ٩ }

(٧) **الخبر** : وهو إعلام السامع بأمر ما وإحضاره إلى وعيه :

{ ويسألونَكَ عَنْ ذِى القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتلواعليكُمْ مِنْهُ ذِكْراً - ١٨/الكهف٨٣}

(٨) **الحفظ** : وهو مداومة الوعى بالشىء وعدم نسيانه :

{ وإذ نَتَقْنَا الجبلَ فوقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أنه واقعٌ بهمْ خُذُوا ماآتيناكم بِقوةٍ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون - ٧/ الأعراف١٧١ }

(٩) **العيب** :أى الأخبار بسوء ، أى إحضار معنى قبيح عن شيئ فى ذهن المستمع :

{ وإذا رَءاكَ الذين كفروا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُواً أهذا الذى يَذْكُر آلِهَتَكُمْ وهم بِذِكْرِ الرحمنِ هم كافرون - ٢١ / الأنبياء ٣٦ }

(١٠) اللوح المحفوظ :

{ ولَقَدْ كَتَبْنَا فى الزبور منْ بَعْدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصالحون ـ ٢١/ الأنبياء ١٠٥ }

(١١) صلاة الجمعة :

{ يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاة منْ يوم الجُمُعَة فاسعوا إلى ذكر الله وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُم خيرٌ لكم إنْ كنتم تَعلمون ـ ٦٢/ الجمعة ٩ }

(١٢) التوراة : من حيث كونها علم من الله :

{ وما أرسلنا قَبْلَكَ إلا رجالاً نُوحِى إليهم فَسْئَلُوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لاتعلمون ـ ٢١/ الأنبياء ٧ }

(١٣) الشرف : وهو جعل أمر مافى محل مرتفع فى إدراك الناس :

{ وإنهُ لذكرٌ لكَ ولِقَوْمِكَ وسَوْفَ تُسْئَلُون ـ ٤٣/ الزخرف ٤٤ }

(١٤) الوحى : وهو تنزل العلم من الله لوعى الموحى إليه :

{ فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ـ ٣٧/ الصافات ٣ }

وعدد من الأستعمالات الأخرى التى اشتبهت علينا فلم نذكرها صراحة .

(٥٤) والواضح من هذه الأوجه السابقة لأستعمالات كلمة "الذكر" فى القرآن الكريم أن هناك رباطاً يجمع بينهما جميعا :
ألا وهو : تواجد أو إستحضار شىء ما فى الإنتباه والوعى . والقلب هو محل ذلك الوعى . {٥٢}

{٥٢} ـ القلب الذى يتحدث عنه علماء المسلمين ، والذى نقصده هنا ليس هو القلب المادى الذى يعمل كمضخة الدم لباقى أجزاء الجسم . ولكنه "لطيفه" أو خاصية موقعها نفس موقع ذلك القلب . . والعقل والإدراك والنفس كلها مرتبطه بهذا القلب غير المادى وتدور فى فلكه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تستخدم الجوارح ـ أى أعضاء الجسد ـ فى تأكيد هذا الوعى فيكون المرء ذاكراً بقلبه ولسانه . وقد يؤكد العمل حقيقة هذا الذكر فيكون الذاكر ذاكراً باللسان والقلب والعمل أو يكون الذكر فقط بالقول باللسان أو خفياً فى القلب .

مفهوم كلمة " الذكـــر "

(٥٥) فالذكر فى المفهوم الواسع يشمل جميع الأقوال والأحوال والأفعال التى يكون لها تعلق بالله تعالى .
فجميع أعمال الجوارح التى يقصد بها المرء ربه ، والتى هى من الأستجابة لأمره ونهيه هى ذكر لله . وانطلاقات القلب الباطنة ومداركه تشوفاً إلى مولاه هى ذكر لله .
إلا أن الغالب على معنى لفظ " الذكـر " عند عامة الناس ، إنما هو الذكر بحركة اللسان ، سواء اشترك معه القلب والجسد ، أم انفرد به اللسان .
ولا جدال فى أن الذكر الذى يجمع بين القول والحال القلبى والعمل هو قمة ذكر الله كله .

(٥٦) **وقول الإمام ابن القيم الجوزية " الرأى الغالب عند العلماء اعتبار ما يتعلق بأفعال العباد سواء دراسة أحكام الأمر والنهى أى الشريعة والفقه ، أو القيام بتنفيذها عبادات ومعاملات ، من الفقه الأكبر . ومن ثم تستبعد من المعنى المتعارف عليه والمألوف للذكر** " . [٥٣]

وذلك بنفس المنطق الذى بيناه بخصوص كلمة الإسلام فى المعنى العام الواسع ومعناها الخاص المألوف . [٥٤]

فإذا استبعدنا الذكر بالأعمال ودراسة ما يتعلق بها من أحكام يتبقى الذكر بالقلب والذكر باللسان . والذكر بالقلب ذكر خفى والذكر باللسان ذكر جهرى .

---

[٥٣] ـ انظر : ابن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع / ٤١ ، ص ٨٢

[٥٤] ـ انظر : بداية الفصل الأول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥٧) ويجمع الله فى آيات الكتاب المبين ، بين الإيمان والعمل الصالح على الوجه الذى يظهر منه أن الأفعال تابعة للأحوال القلبية ، ومنعكسة عنها وأن القلب محل نظر الله تعالى فى العبادة .

{ يوم لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم - ٢٦/ الشعراء ٨٨ ، ٨٩ }

والأعمال - عند أهل السنة والجماعة - جزء من مفهوم الإيمان : فلا يتصور إيمان بلا عمل . فإن القلب إذا امتلأ بشعور ما - أيا كان هذا الشعور - لابد له من التعبير عنه ، ولو فى خلجة عين ، أو ابتسامة ، أو فعل أوضح من ذلك . قال الله تعالى :

{ مَنْ عَمِلَ صالحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهُوَ مُؤْمِنٌ : فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُم أجرهم بأحسنِ ماكانوا يعملونَ - ١٦/ النحل ٩٧ }

وقال تعالى :

{ ومَنْ أرادَ الآخرةَ وسَعَى لها سَعْيَهَا وهو مُؤْمِنٌ ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً - ١٧/ الأسراء ١٩ }

فجعل - سبحانه - الإيمان شرطاً سابقاً لحدوث الأعمال الصالحات التى يعتد بها . وهى بلاشك تكمله وتكون معه كُلاً واحداً هو الموجب والمسبب لرضاء الله تعالى وثوابه . ولقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى ، فى بيانه للإيمان بأنه :

{ ما وَقَرَ فى القلب ، وصَدَّقَهُ العمل } {٥٥}

وقوله ، عليه أفضل الصلاة والسلام :

{ الإيمانُ بضْعٌ وسبعونَ شُعْبَة : فأفضلُها قولُ لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان } {٥٦}

{٥٥} - أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس وابن النجار وسعيد بن منصور فى سننه عن أنس رضى الله عنه ، حديث حسن .
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/ ٢٥ ، جزء/٣ ، ص٥٧
انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع/ ٢٨ جزء/١ ، ص٢٥ ، حديث رقم/١١

{٥٦} - أخرجه الإمام مسلم وأبوداود ، والنسائى ، وبن ماجه ، عن أبى هريرة . وكذلك أخرجه الترمذى ، والبخارى باختلاف فى اللفظ عن أبى هريرة أيضاً ، رضى الله عنهم .
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/ ٢٥ ، جزء/١ ،ص ٥١ .
انظر : بن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع/٢٨ ، جزء/١ ،ص٣٥، حديث رقم/٥٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى الحديث الأول يكون العمل دليلاً على ما فى القلب من خصال . فكأن العمل هو ذكر إيجابى تنفيذى يصدقه مافى القلب ويبينه وينعكس عنه .

وفى الحديث الثانى تشمل شعب الإيمان القول بالشهادة ، وما يترتب عنها من حال وسلوك حتى إماطة الأذى عن الطريق العام رغبة فى ثواب الله . كما أن هذا العمل يعبر عن حال شعورى يعد من الإيمان أيضاً . ولعل أوضح دليل على توقف نوعية العمل ودرجته على حال القلب إنما هو قوله صلى الله عليه وسلم :

{ ألا إن فى الجسد مُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب } (٥٧)

فالعمل الصالح ثمرة لما فى القلب من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره . فالإيمان ـ عند أهل السنه والجماعة ـ مجموع كلى لما فى القلب ، وما ينبعث عنه من أعمال سلوكية .

(٥٨) ومن ثم فإجماع أهل العلم على أن ذكر القلب يعلو على ذكر اللسان ويفضله . وإلى هذا يشير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ خَيْرُ الذكرِ الخَفِى وخيرُ الرزقِ ماكَفَى } (٥٨)

وهو خبر كاف فى أن ذكر القلب وحده يعلو على ذكر اللسان وحده . أما أفضل الذكر فيكون بالجمع بينهما طالما أن لكل منهما أجره وفوائده .

---

(٥٧) ـ جزء من حديث متفق على صحته ، رواه الشيخان البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهم أجمعين .
انظر : الإمام النووى ، الأربعين النوويه ، المرجع/ ٢١، الحديث السادس ، ص ٢٦
انظر : ابن رجب الحنبلى و جامع العلوم والحكم ، المرجع/ ٢٣ ، ص٨١

(٥٨) ـ أخرجه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والبيهقى عن سعد .
انظر : الإمام السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع/ ٢٤ ، جزء٢/ ص٨
انظر : ابن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع/ ٢٨ ، جزء١/ ص٤١٧ ، حديث رقم/ ١٧٧١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أن ذكر اللسان يبدو ضرورياً لتحقيق ذكر القلب : فهو مدخل وباب للذكر القلبي ومحرك لحال القلب .
ولذا يعتبر ذكر اللسان بداية ذكر الله كله . ولعل هذا واضح في كون الإسلام كله يبدأ بالشهادتين ويشترط فيهما التلفظ جهراً باللسان . وواضح أيضاً من قوله صلى الله عليه وسلم :

{ جَدِّدُوا إيمانكم : أكثروا من قول لا إله إلا الله } {٥٩}

(٥٩) وذكر الله باللسان إنما يقصد به أمران أساسيان :

الأول : الثواب من الله تعالى . **إذ يرى جمهور الفقهاء وجوب التلفظ باللسان في الذكر** . وسبب ذلك أن الأحاديث النبوية الشريفة وردت دائماً بقوله صلى الله عليه وسلم بصيغة :

{ من قال كذا كان له من الأجر كذا } {٦٠}

والقول لا يكون إلا بالتلفظ بالكلمة .

الثاني : إيقاظ القلب وتعميره بالمذكور ، وإيضاح المعنى للعقل . ويتحقق ذلك بأمرين :

أ ـ التكرار ، إذ هو إصرار على إلزام النفس باستحضار عظمة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى المذكورة بكلمات الذكر . ومن ذلك تكون الفائدة بتحقق الأنتباه مع الأعتياد على الذكر ، ثم تفهم معانيه .
وهذا التكرار يثبت " المذكور " بالإيحاء ويكون الألفة معه . وفي هذا المعنى يقول النبي الخاتم عليه صلوات الله وسلامه :

{ جددوا إيمانكم : أكثروا من قول لا إله إلا الله } {٦١}

ب ـ اشتراك أكثر من جارحة في الذكر : فدخول السمع مع اللسان يزيد في الأنتباه ويقوى الإحساس ، ويرسخ المعنى .

{٥٩} ـ سبق تخريجه ، انظر بند رقم/٣٦ ، هامش رقم/٢٦، ص٣٢
{٦٠} ـ انظر : محمد بن علي الشوكاني ، تحفة الذاكرين ، المرجع/ ٣٠ ، ص٣٣
{٦١} ـ سبق تخريجه ، انظر : بند رقم/٣٦ ، هامش رقم/ ٢٦ ، ص٣٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذ أن تعدد وسائل الإدراك يعدد "صور" و "مفاهيم" المذكور فى الوعى . كالمستمع لحديث بدون رؤية المتكلم يكون بلا شك أقل تخيلاً لمعنى الكلام من الناظر إلى المتكلم حيث تنتقل إليه بعض المعانى من صورة المتكلم وإنفعالاته. كما أن استقرار الجوارح يستتبع راحة النفس والأطمئنان إلى جنب الله .

(٦٠) إلا أنه لا يشترط واقعيا فى كل من تلفظ بقول ما ، كالنطق بالشهادتين مثلاً ، أن يكون على يقين قلبى وقناعة تامة بهما ، ولا أن تكون أفعاله معبرة عن التزامه بحقيقة الشهادتين تعبيراً يتطابق مع الأنطباع الذى يعطيه نطقه اللسانى .
فالعلاقة بين القول وحال القلب ، والعمل تثير احتمالات كثيرة .

فأولاً : إذا كان الفعل الظاهر يفوق ويعلو على أحوال العبد القلبية الباطنة فنحن أمام ثلاث احتمالات :

أ ـ أن يكون سلوكه الظاهر ـ بالتقوى والصلاح والزهد ومظاهر الإيمان العميق مثلاً ـ بقصد التظاهر للحصول على إعجاب الناس . ويكون مع ذلك أصل التقوى والصلاح والزهد والإيمان فى قلبه فعلا ولكن بدرجة أقل مما تعبر عنه أحواله الظاهرة ـ فهذا يكون رياء .

ب ـ وأما إذا كانت هذه الأفعال الظاهرة خداعاً وليس فى القلب إيمان ولا تقوى ولا غيره ، فهذا هو النفاق .أي أن النفاق متعلق بانتفاء (أى عدم وجود) حقيقة الإيمان من القلب ، و بأن القصد ليس الحصول على إعجاب الناس ، وإنما مخادعتهم . قال تعالى :

{ **يُخَادِعُونَ اللهَ والذين آمنوا ، وما يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ وما يشعرون** ـ ٢/ البقرة ٩ }

جـ ـ وإما أن تكون أفعاله الظاهرية الطيبة ، وإن كانت تفوق حاله الإيمانى فى القلب إنما هى بقصد الحصول على الثواب من الله ، وتشبها بالصالحين والتزاما منه بأمر الله ورسوله ، وليست لمراءة الخلق : فهذا ليس نفاقاً قطعاً ، وإنما نوع من المجاهدة فى الله .
وهذا من حال المسلم فى أول الطريق . إذ يحاول أداء المأمورات وهو لم يتحقق بعد بالإيمان الكامل المتعلق بها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦١) وثانيا وعلى العكس من ذلك يتخيل أن يكون قلب المؤمن عامراً بالإيمان ، وتنفيذه الفعلي أقل من حاله القلبي : والظاهر أن هذا هو حال غالبية العباد . وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ نيّةُ المؤمن خيرٌ منْ عَمَله ، وعملُ المنافق خيرٌ من نيته وكل يعمَل على نيّته فإذا عمل المؤمن عملا نارَ فيّ قلبه نور } (٦٢)

فهنا مشكلة نعانى منها جميعاً ، هى رغبتنا فى تحقيق وتنفيذ ما نعرف من الدين ، ولكن قدرتنا التنفيذية أقل فى القوة والشدة ، من مدى علمنا بما هو مطلوب ومستحب فلا ننفذ عادة إلا جزءاً مما نعرف .

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى ضعف العزيمة ،وإلى النسيان ، وهذان يؤديان إلى إنشغال المرء بالظروف المحيطة به والإستسلام إلى تنازلات صغيرة ، تكون كبيرة فى مجموعها ، وخطراً على حاله كله : ومعظم النار من مستصغر الشرر .

والتمسك بحدود الشرع هو أول الوقاية ، والخروج من الغفلة إنما هو بدوام الإنتباه إلى المولى سبحانه بتذكره وذكره وهو عماد الأمر كله .

(٦٢) وخلاصة القول إذن ، أن القلب هو البؤرة المركزية للأعمال والأقوال وأن استعمال اللسان هو البداية والمعين على تعمير القلب بذكر الله ، وقد يكون شرط للحصول على ثواب الأذكار .

وأن الأعمال الصالحات المتصفة بالأخلاص ـ وهو شرط فى قبول الأعمال ـ إنما تنبعث عن القلب وتعبر عن حاله : وقد تسبق هذه الأعمال حال القلب فتكون إما مجاهدة بالإلتزام ، وإما مراءاة للناس .
وإما إذا كانت الأعمال لا أساس لها فى القلب ، فهى نفاق والعياذ بالله من الشيطان الرجيم .

---

(٦٢) ـ أخرجه البيهقى عن أنس ، والطبرانى عن سهل بن سعد وله روايات، ومعناه صحيح وله شواهد كثيرة منها : حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى ..الخ
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/٢٥ ، جزء/٣ ،ص ٢٦٥
انظر : على بن أبى بكر الهيثمى ، مجمع الزوائد ، المرجع/٣٨ ،جزء/١،مجلد/١ ، ص ١٠٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا : ماهية الذكر

(٦٣) الإنتباه ضد الغفلة : فلا شك فى أن الناسى لأمر ما لا يخطر بباله شىء عن هذا الأمر ، أى أنه يكون غافلا عنه .

ومن ثم فإن الإنتباه لأمر ما إنما يعنى تذكر الشخص لهذا الأمر ، وانصراف وعيه إليه . ولذا يكون ذاكرا له أو متفكرا فيه ، أو الإثنين معا .

وذاكر الله ، إذن ، هو المنتبه إليه أو إى صفاته أو أفعاله ، واعيا لوجود الله مستحضرا له فى الذهن أو الشعور . أما الناسى الغافل فهو على العكس من ذلك .

والغفلة عن الله ونسيانه خطر عظيم يقع فيه المرء كما أن صاحبها ممقوت من الله تعالى ، وقد وصفه رب العزة بالفسق مرة وبأنه أحط من الأنعام مرة أخرى :

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ـ ٥٩/ الحشر١٩ }

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ـ ٧/ الأعراف ١٧٩ }

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ـ ١٦/ النحل ١٠٨ }

ومشكلة النسيان عند الإنسان تحتل دوراً بالغ الأهمية والخطورة فى الدين . كما أن اليقظة من الغفلة ، والتى تعنى القومة لله أى (النهوض إلى خدمته ومعاملته) بالعلم والعمل ، هى أول وأهم خطوات الطريق إلى الله تعالى ، وهى أساسه أيضا :

قال تعالى : { قل إنما أعظكم بواحدة :أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ... ـ ٣٤/ سبأ ٤٩ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦٤) والله ـ جل شأنه ـ يبين أن النسيان أحد أهم الخصائص التى سببت السقوط الآدمى ، والذى تعمل أوامر الشرع كلها ـ خاصة العبادات ـ على علاجها وتخليص الإنسان منها ومن آثارها ونتائجها . يقول سبحانه وتعالى :

{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى ، فَقُلْنَا : يا آدمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشْقَى ، إِنَّ لك ألا تَجُوعَ فيها ولاَ تَعْرَى وأَنَّكَ لاَتَظْمَأُ فيها ولاَ تضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطانُ قال يا آدمُ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لايبلى ، فَأَكَلاَ منْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتهما وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا منْ وَرَقِ الجنة وَعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فتابَ عليْهِ وهدَى قَالَ اهْبِطَا منْهَا جميعاً بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عدوٌ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم منِّى هُدًى فَمَنْ أتبعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ وَلا يشقَى ومن أَعْرَضَ عَن ذكْرِى فإِنَّ له معيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى ، قالَ رَبِّ لم حَشَرْتَنِى أعمى وقد كنتُ بصيراً قالَ كَذلكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَهَا وكذلك اليومَ تُنْسَى ، وكذلك نَجْزِى من أسرفَ ولم يُؤْمنْ بآياتِ ربِّهِ ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقَى ـ . ٢/ طـه ١١٥ـ١٢٧ }

ففى هذه الآيات أربعة عناصر تفسر الهبوط الآدمى وهى خصائص فى الإنسان : اثنتان من قبيل الصفات ، واثنتان من قبيل النزعات النفسية :

١ـ النسيـــان ..... { ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى}

٢ـ ضعف العزيمـة .....{ ... ولم نجد له عزما }

٣ـ حب الخلـود ..... { قال هل أدلك على شجرة الخلد...}

٤ـ حب الملكيـه .....{ وملك لا يبلـى ... }

٥ـ ويضاف إلى هذه العناصر ، عنصراً خامساً اشترك فى تسبيب ظاهرة الهبوط ، وهو حب السمو والعلو ويستدل عليه من قوله تعالى :

{ وقال مانهاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشجَرَةِ إلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أو تكونا من الخالدين ـ ٧/ الأعرَاف . ٢ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهنا حب آدم لأن يكون فى المقام الأعلى من حيث القرب من الله . فخديعة الشيطان له هنا ، تبدو لبعض العلماء ، لا من نزعة إلى عصيان الله ، ولكن رغبة فى القرب منه ، ظنا بأن الملائكة هم أقرب خلقه إليه .

مشكلة النسيان وهبوط سيدنا آدم عليه السلام

(٦٥) ومن هذه الخصائص الأساسية تنبع الصفات السلوكية الهبوطية والصعودية : أى التى تعلو بالأنسان إلى الرقى والتسامى ، وتلك التى تحطه إلى الأرض والتدانى . وقد جعل الله تعالى خصائص الإنسان فيه ، قابلة لاتخاذ الإتجاهين الهابط والصاعد ، فجوراً وتقوى . قال تعالى :

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ـ ٩١/ الشمس٧ . ٨}

فالغضب شر ولكنه إن كان لله وفى الله فهو خير .
والخيلاء شر ناتج عن مرض في النفس ولكن إن كانت مشية الخيلاء عند التقاء فى الجهاد فى سبيل الله فهى مشيه يحبها الله ورسوله .
والحب خير ، ولكن حب أعداء الله شر .
والرحمة خير إن كانت مع المؤمنين وشر إن كانت مع الكافرين ، إلا إن كانت الرحمة بمعنى أن تهديهم إلى الله .
والعزة على المؤمنين شر ، وعلى الكافرين خير .

(٦٦) وعمل هذه الصفات والنزعات فى الأتجاه الهبوطى أو الأتجاه الصعودى وثيق الإرتباط بأمرين عظيمى الأهمية : أولها الشيطان وإغوائه ، وثانيهما النفس ونوازعها .
فالبشر أصلاً على الفطرة : قال صلى الله عليه وسلم :

{ كُلُّ مولود يُولَدُ على الفِطْرَةِ وإنما أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِهِ } {٦٣}

{٦٣} ـ أخرجه الإمام البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ، والطبرانى وأبو يعلى عن الأسود .بن سريع .
انظر : ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع /١١، جزء / ٣ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، حديث رقم / ١٣٨٥ .
انظر : النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/٢٥ ، جزء/٢ ، ص ٣٢٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و انحراف الإنسان عن الفطرة إنما هو بفعل البيئة العامة . والبيئة تشمل الشياطين ، وما فعلته فى الأنسان فأورثته ما يسمى ثقافة وحضارة قد تكون شيطانية فى حقيقتها . والأبوان جزء من بيئة المولود . على اختلاف حالهما من صلاح وتقوى أو فساد أو عصيان لرب السماوات والأرض . ولولا محاربة الشياطين للإنسان لكان الناس على الفطرة متصلين بقلوبهم بربهم وبما خلق من أكوان . وقال صلى الله عليه وسلم :

{ لولا أن الشياطينَ يَحُومُونَ على قلوبِ بَنِي آدمَ لنَظَروُا فى مَلَكُوتِ السمواتِ والأرضِ } {٦٤}

(٦٧) **فالشيطان** تتوجب معاداته بمعنى عدم طاعته أو الألتفات إليه ، وعدم الأمان لما يورده من وساوس . وليس معنى معاداته الإنشغال به بحيث يجعل المرء هذه المعاداة هى همه الأول . بل إن معادته الحقيقية هى فى أن ينشغل العبد بالله تعالى ويلجأ إليه فى عبودية صادقة بالطاعة والحب.
والله تعالى يكفى عبده كل حاجاته إن كان العبد لله وليس لغيره ...

{ **أليْسَ اللّهُ بِكَافٍ عَبْدَهْ** ـ ٣٩ / الزمر ٣٦ }

وهذا المعنى نفسه ظاهر فى المعوذتين وفى الإستعاذة وهو مضمونها ولبها . فليس العبد هو الذى يعتمد على نفسه ، بل العبد الصادق هو الذى يعلم أن لا حول ولاقوة إلا بالله ، فيلجأ إليه ويسلم له أمره وحاجته . ويطلب منه فى صدق عبودية : أى يدعوه ويستعيذ به :

و { **الدعاءُ مُخُّ العبادة** } {٦٥}

وقد روى عن بعض الأئمة رضى الله عنهم أجمعين : قال : سمع الناس قول الله تعالى :
{ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** ـ ٣٥/ فاطر٦ }

ففهم قوم من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان فجعلوها حربا بينهم وبينه فكان النصر لهم مرة وله مرة . وقوم فهموا أن " الشيطان لكم عدو" أى وأنا الله لكم حبيب ، فانشغلوا بمحبة الله فكفاهم من دونه .

{٦٤} ـ أنظر : تخريج الإمام العراقى على هامش الإحياء . المرجع / ٤٨ ، جزء / ١ ، ص ٢٣٢
{٦٥} ـ أخرجه الأمام الترمذى ، وابن ماجه ، عن أنس رضى الله عنهم أجمعين .
انظر : ابن حسام الدين الهندى ، الكنز ، المرجع/٢٨ ، جزء/٢ ، ص٦٢ ، حديث ٣١١٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسأل أحد مشاهير الصالحين رضوان الله عليهم ، كيف كانت معاداته وحربه للشيطان فقال فى استنكار : " وما الشيطان ... نحن قوم صرفنا همتنا إلى الله فكفانا من دونه " .

والنفس يتوجب التحكم فيها ، وكسر حدة سيطرتها ، ومقاومة وسواسها ، والتغلب على نزعاتها بإخضاعها لرب العزة ولمراده ، فتترقى من نفس أمارة بالسوء إلى نفس ملهمة إلى نفس مطمئنة وهكذا . [٦٦]

حكمة الشريعة فى علاج الإنسان

(٦٨) والقدرة على معاداة الشيطان ، وإخضاع النفس وكسرها وقيادتها للخير تتطلب قوى وطاقات .

ومدار الشريعة على إعداد هذه القوى والطاقات ، وتنظيم السلوكيات المنبعثة من الصفات البشرية والقوى والطاقات سواء ماكان كامنا منها فى الإنسان أو ماكان مكتسبا ودفعها فى مجارى وسبل تعود بالإنسان إلى الجنة التى أهبط منها نتيجة المعصية الآدمية الأولى .

ولا يتصور أن يقدر غافل على النجاة وعلى التغلب على الشيطان وعلى التحكم فى النفس وقيادتها بدون التذكر والإنتباه والإحتراس : وذلك إما باللجوء إلى الله ، وهو الذى فضلناه ، وإما بالإنشغال بمخالفة الشيطان ومعاداته رغبة فى مرضاة الله .

فأصل الأمر فى التذكر، وآلته ووسيلته الذكر . بل ولا يتصور عزيمة على التوجه إلى الله ، ولا عزيمة على مداومة الطاعات والإنتهاء عن المنهيات بدون تذكر لغرض المرء وهو الله والآخرة ، وذكر الله المتوجه إليه، المطاع أمره ، المرهوب جانبه جل جلاله وتعالى شأنه .

---

[٦٦] - ليس مرادنا التوقف عند النفس وأحوالها ، وطرق اصلاحها وتعبيدها لله ولا التعرض لأساليب مقاومة الشيطان وتحقيق الهجرة إلى الله . ولذا نمر على الموضوع مر الكرام ، سريعاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦٩) ومنطقي أنه إذا كانت هذه المسببات الخمس هي عوامل السقوط فإن علاجها ، والقضاء عليها في النفس البشرية هو مفتاح النجاة وبابها ومدخلها . والله تعالى شأنه ـ يبين في آيات سورة طه السالفة أن أتباع الهدى ـ أي ما شرع لنا من الدين ـ هو الطريق إلى جنة بلا ضلال ولا شقاء . كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل لكل فئة أو طائفة من عباده ما يناسبها من الطرق .

{ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ـ ٥/ المائدة ٤٨ }

والحق أن كل الشريعة إنما هي أوامر ونواهي يكمن في لب حكمتها وسرها ، غرض هو : تغيير الكيان النفساني والجسماني للإنسان حتى يتناسب مع حقيقة ومضمون الحياة الراقية في الجنان . فالهدف الأعظم للشريعة هو إعداد الإنسان للعودة حيث كان ... في الجنة .

أ ـ فإقامة الصلاة مثلا خمس مرات في اليوم والليلة ، هي مقاومة للنسيان ـ وفيها الذكر والفكر ، كما قلنا من قبل . وفيها أيضا انتزاع المرء لنفسه من مشاغل الدنيا وفتنتها وسط النهار وفي أوقات الراحة ، ليقوم أمام الله مقيما للصلاة ، تاركا كل ما حوله جانبا :

وهذا تدريب على الإرادة والعزيمة الملزمة ، باتباع الأمر الإلهي . وهذا الأتباع هو طريق الهدى . وأداء الصلاة والمواظبة عليها وسط الظروف المتغيرة تدريب على الصبر أيضا : وهو عزيمة من حيث التحمل والمصابرة : وفيها معنى الصبر على أداء الطاعات .

ب ـ والصيام تدريب على الإرادة الساكنة المستمرة بالإمتناع ، أي الصبر وهو صبر عن وعلى الشهوات والرغبات الجسدية وبعض الرغبات النفسية أيضا . وعملية الإمتناع في الصيام ، هو حال تذكر دائم مستمر . وهذا تدريب لإرادة العزم من نوع خاص : إذ هو طبيعة إستمرارية طوال وقت الصيام .

والقوة قوتان : قوة الفعل الإيجابي ، وقوة التحمل وملك النفس . وقد أشرنا إلى هذا من قبل . (٦٧)

---

(٦٧) ـ انظر بند رقم / ٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج ـ وأداء الزكاة يتم بالتغلب على النفس التى من طبيعتها إعلاء شأن العاجلة، والنفور من الآجلة ـ حتى وإن دل العقل على أن الآخرة هى الحقيقة وهى المآل وهى الأقوم . وهذا التغلب عزيمة في اتباع الحق . وقد بينا من قبل تلازم الزكاة مع ذكر الله ، وخاصة ذكره بالأفعال .

وحب النفس للدنيا العاجلة ، نسيان للحقيقه الأصلية في أن مصدرنا كان عوالم الآخرة ، وليس عوالم للدنيا التى هى الدار التى أهبطنا إليها . وهذا نسيان للموقف الأساسى الذى قال فيه الله تعالى :

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ـ ٧/ الأعراف ١٧٢ـ ١٧٣ }

فالذكر هو قصد الصلاة ومتضمن فى كل صغيرة وكبيرة فيها . وهو شرط استمرارى لحدوث الصيام ، ومقصود فى أفعاله ، وهو كذلك فى الزكاة . والذكر فى الحج هو الرحلة كلها :وهو رحلة الحياة من بدايتها لنهايتها .

وهذا كله طبيعى طالما أن السببين الرئيسيين لوقوع الإنسان فى المعصية هما " فنسى " " ولم نجد له عزما " . ومنطقى أيضا أن يكون مدار الشريعة حول علاج نقصه وعيبه وضعفه .

مركزية الذكر فى أصل سبب الخلق

(٧٠) وهذا المعنى السابق ـ الذى يفهم منه أن الذكر جوهر العبادة والسلوك ـ يمكن استنباطه من قوله تعالى :

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ـ ٥١/ الذاريات ٥٦ }

فهذه العبادة فسرت بأنها المعرفة ـ حتى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ـ حبر الأمة كان يقرأها (الا ليعرفون) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحق أنه لا يتصور أن يعبد الإنسان ما لا يعرف ، ولا يتصور أن يعرف الإنسان ربه ، ولا يعبده : يعرفه بجلاله وعظمته ، ولطفه ورحمته ، وعزته وكرمه .
وبديهى أن هذه المعرفة لا يمكن أن تتحقق بدون التفكر والتذكر أى بدون استحضار صفاته وأفعاله فى الوعى ، والانتباه إلى حكمته فى الخلق والتدبير، والتأمل فى أحكامه بالأمر والنهى ثم بعد ذلك الإستجابة لها بالطاعة والتنفيذ .

وإذا كان الله جل جلاله قد حدد أنه خلق الجن والإنس ليعبدوه وكانت العبادات التى شرعها جوهرها ذكر الله ، وقاسمها المشترك ذكر الله ، وجعلت لذكر الله ، فإنما يعنى هذا أن ذكر الله هو جوهر المطلوب من الخليقة كلها .
وإذا كانت عبادة الله التى خلق لأجلها الجن والإنس تدور مع معرفة الله وجودا وعدما ، وأن هذه المعرفة لبها ومنشأها ، واستمرارها ، ونموها ، مؤسس على ذكر الله والتفكر فيه ، فقد تبين من هذا ، ومما قبله، أن مقصود الدين كله ذكر الله ، وأن مطلوب الله من العباد عبادته وفى عبادته ذكره ، وفى ذكره عبادته .

(٧١) وتذكر الحقيقة الكونية الكبرى : وجود الله وصفاته على بينة من الكتاب والسنه هى إمداد للعبد بالقوة والعزيمة وبخاصية الإيمان ذاتها . فهى ، والله تعالى أعلم ، أشبه بعملية شحن طاقات وقوى وعزائم وإرادات . ولهذا لايستغرب أن الله تعالى يأمر بالذكر فى شتى الأحوال والأوقات ـ وبالذات عند القتال . قال الله تعالى :

{ يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ـ ٨/ الأنفال ٤٥ }

ولما سألت السيدة فاطمة رضى الله عنها أباها صلى الله عليه وسلم أن يعينها على أعمال الدار بأن يهبها بعض السبى يعمل فى دارها ... قال :

{ ألاأدلكماعلى ما هو خيرلكمامن الخادم؟إذاأخذتما مضجعكما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقولان ثلاثا وثلاثين وثلاثا وثلاثين وأربعا وثلاثين من تحميد وتسبيح وتكبير } [٦٨]

(٧٢) والأمر بذكر الله في موقف بذل الروح والنفس والمال ، والمجاهد ممسك بسيفه في يده ، يدفعنا إلى التساؤل عن علاقة ذكر الله بموقف المقاتلة والموت في سبيله .

فهو إما شحن للطاقات والقوى كما أشرنا ، وإما أنه يؤدي بالمرء إلى الإقدام على الموت في سبيل الله . ولا يكون إلا حبا لله وتفضيلاً له ولمراده على الحياه الدنيا .

{ ومن أحب لقاء الله فقد أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه } [٦٩]

{ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى - ٥٣ / النجم ٤٢ }

والظاهر من الآيات والسنة الشريفة أن ذكر الله يسبب وينمي حب الله وحب الرجوع إليه في قلب العبد . فالآيات القرآنية تفصح عن الذين يتذكرون هم أهل الرجوع إلى الله ، والعودة إليه ، وحب لقائه . قال تعالى :

{ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ - ٤٠/ غافر ١٣ }

{ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ - ٥٠/ قاف ٨ }

---

[٦٨] - أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي واللفظ له وقال حديث حسن غريب .
انظر : الإمام النووي ، صحيح مسلم ، المرجع/١٢ ، جزء/١٧، ص٤٥، مجلد/٦
انظر : المباركفوري ، تحفه الأحوذي ، المرجع/ ١٣ ، جزء/٩ ،ص٣٥٣ - ٣٥٤ ،حديث رقم/٣٤٦٩
انظر : النبهاني ، الفتح الكبير ، المرجع/ ٢٥، جزء/ ١ ،ص٤٧٨

[٦٩] - أخرجه الإمام البخاري براويتين واللفظ له ، ومسلم بأربع روايات ، وأبو داود مختصراً ، والإمام مالك في الموطأ ، والترمذي في الزهد والجنائز ، والنسائي فيهما . والإمام أحمد في مسنده .
انظر : النبهاني ، الفتح الكبير ، المرجع/ ٢٥ ، جزء/٣ ، ص ١٤٩
انظر : ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، المرجع/ ١١ ، جزء/١١ ، ص٣٥٧ ، حديث ٦٥٠٨
انظر : الأحاديث القدسية ، المرجع/ ٢٠ ، جزء/١ ، ص٣٠٢ - ٣٠٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - يؤكد أن السابقين إلى الله تعالى هم أهل الذكر :

{ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ ، ... سبق المفرّدون ، ... سبق المفرّدون ، فقالوا وما المُفَرِّدُون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون اللهَ كثيراً والذاكرات ، يضَعُ الذكرُ عنهم أثقالَهُم (أوزارَهُم) فيأتونَ يوم القيامةِ خِفَافاً } {٧٠}

وهذا السبق فى العودة إلى حال الإنسان الكامل ، والإنابة إلى الله تعالى (أى حب الرجوع إليه) وحب لقائه ، هى حقيقة إيمانية وثيقة الإرتباط بذكر المحبوب سبحانه وتعالى :

{ الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر } {٧١}

والذكر جنه المؤمن فى الدنيا : فقد روي عن بعض الأئمة قوله :
" كل إنسان معه جنته فى قلبه ... بقدر ما يكون ذاكراً لربه "
وروى عن الشيخ ابن تيميه رحمه الله أنه قال : " ما يصنع أعدائى بى : أنا جنتى وبستانى فى صدرى إن رحت فهى معى لا تفارقنى " {٧٢}

ثالثا : الذكر والفكر

(٧٣) ولا شك أن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومعاملاته للعبد بالنعمة والرعاية والفضل هى التى ينبثق منها حب الله فى القلب ، ومن ثم حب الرجوع إليه ولقائه .
ورجوع المؤمنين الصالحين رجوع إلى الحال الأمثل الذى خلق الله الإنسان عليه فى أحسن تقويم قبل أن يرده هبوطاً إلى أسفل سافلين .

{٧٠} - سبق تخريجه ، انظر بند رقم/ ٤٣ ، هامش رقم/ ٤٠

{٧١} - أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، والإمام مسلم واللفظ له ، والترمذى ، وابن ماجه .
انظر : الإمام النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/ ٢٥ ، جزء/٢ ، ص ١١٦
انظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع/ ١٢ ، جزء/ ١٨ ، ص ٩٣

{٧٢} - انظر : ابن قيم الجوزية ، الوابل الصيب ، المرجع/ ٤١ ، ص ٤٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد رأينا فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أحب الله ، أحب لقاءه : ومن أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ... وهذا حب لقاء متبادل بين العبد وربه :

{ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يحبهم ويُحِبُّونَهُ ... ـ ٥/ المائدة ٥٤ }

ومعرفة الله ، تشمل معرفة ما خلق : معرفة الدنيا بحقيقتها وقدرها ، ومعرفة عوالم الآخرة المغيبة بحقيقتها وفضلها . وهى تعنى أيضا اختيار الآخرة وتفضيلها على الدنيا . الذى هو أصل الحكمة المؤسسة على المعرفة الحقيقة وأساس بنائها : ألا وهى معرفة الله رب العالمين . وصاحب هذه المعرفة هو صاحب (اللب) أى خالص العقل وأفضله وخياره . {٧٣}

والله تعالى لا ينسب هذا المستوى الإدراكى إلا لأهل الذكر . وهو ـسبحانه ـ ينسب الذكر لأولى الألباب ، فيجعله صفتهم وخاصية لهم . قال سبحانه وتعالى :

{ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألبابِ ـ ١٣/ الرعد ١٩ }

{ وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولوا الألبابِ ـ ٣/ آل عمران ٧ }

(٧٤) والتذكر والتفكر والتبصر والتفهم معانى مرتبطة ومتداخلة وهى فى قالب لغوى واحد : وزن " تفعّل " ، الذى هو بناء فى اللغة يعنى حدوث الشىء بعد مهلة وتدرج .

فالتبصر : عملية تصور للمعنى فى القلب .

والتعقل : عملية حدوث ادراك للعلاقات بين الأشياء .

والتفهم : عملية حدوث ادراك للمجمل الكلى لأمر ما بما فى ذلك طبيعة العلاقات القائمة بداخله .

والتفكر : هو اجراء أى من العمليات السابقة لاكتشاف أى من الأمور السابقة والقيام بها : من تعقل ، أو تبصر ، أو تفهم .

---

(٧٣) ـ انظر لسان العرب ، المرجع/٦١ ، جزء/٥ ، ص ٣٩٧٩ ـ ٣٩٨١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأما التذكر : فهو استدعاء أو استحضار شيء ما فى الوعى ولا يهم فى ذلك هل أجريت عليه أو قبله أو بعده أى عملية من هذه العمليات الفكرية الأخرى .

وأما الذكر : فهو وجود مستمر (ولو للحظات) ، لما استدعى بالتذكر : أى وجود شيء مستحضر فى الوعى .

وأما وجود الداعى إلى هذا التذكر فيسمى " ذكرى " .

(٧٥) ويجمع الله تعالى بين الذكر والفكر فى عده آيات ، وعديد من المواقع فى القرآن المجيد منها قوله تعالى :

{ **إِنَّ فِى خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ويتفكَّرُونَ فى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار** ـ ٣/ آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١ }

فالآية الكريمة تدل على أن أولى الألباب يجدون فى حقائق الكون من حيث الخلق فى السماء والأرض ، ومن حيث النظام الكونى وحكمته ، والقوى العاملة فى تدبيره بأمر الله ومشيئته ، مداخل لعلاقة العبودية بالربوبية . وقد أمر الله عباده بذلك ، قال عز من قائل :

{ **قُل سيُروا فى الأرضِ فانْظرُوا كَيْفَ بَدأ الخَلْق** ـ٢٩/العنكبوت ٢٠ }

وقال : { **قل انْظرُوا مَاذَا فى السموات والأرضِ** ـ ١٠/ يونس ١٠١ }

وقال : { **أفلا يَنْظرُونَ إلى الإبل كَيفَ خُلقَتْ وإلى السماء كيفَ رُفعَتْ وإلى الجبال كيفَ نُصِبَتْ وإلى الأرضِ كيف سُطحَت** ـ ٨٨/ الغاشية ١٧ ـ ٢٠ }

(٧٦) ثم يحدد ويخصص ـ جل شأنه ـ لأولى الألباب صفتين أساسيتين:

(أ) ـ أنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وفى هذا إشارة إلى أنهم يذكرونه فى جميع الأحوال . لأن حال الإنسان لايكون إلا فى أحد هذه الحالات الثلاث ولا رابع لهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان هذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فعن أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنها قالت :

(كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه) (٧٤)

(ب) ـ وأنهم يتفكرون فى سر الخلق ونظامه . وهذا التفكر وثيق الصله و الإرتباط بالتذكر . إذ مبدأ التفكر تذكر . فلن يتفكر إنسان فى شىء لا يذكره . وإنما يتذكره أولا فإذا تذكره قد يتفكر فيه وقد لا يتفكر ويكتفى بالتذكر . وحتى فى الإكتفاء بالتذكر ، فإن تكرار اسم المذكور يرسخ المعنى ويوضحه بدون الإنتباه الواعى لهذه العملية أى مايسمى بالإيحاء . والأهم من ذلك أن ذكر الله ينشىء أيضا دافعاً سلوكياً باطنياً يحدث التحول فى الشخصية بدون المجهود الظاهرى فى إحداثه . (٧٥)

(٧٧) وهذا التذكر والتفكر ، يقوم به نوعان من الخلق :

النوع الأول : أولئك الذين يبحثون عن الحق ، لم يؤمنوا بعد : وهؤلاء تكون الآيات الكونيه لهم بياناً ودليلاً على وجود الله ، فتقودهم للإيمان . ومثاله قوله تعالى :

{ أفلا ينظرونَ إلى الإبلِ كيف خُلقتْ وإلى السماءِ كيف رُفعَتْ، وإلى الجبالِ كيف نُصبَتْ ، وإلىَ الأرضِ كيف سُطحَتْ ـ ٨٨ / الغاشية ١٧ ، ٢٠ }

والنوع الثانى : أولئك الذين هم مؤمنون بالفعل : وهؤلاء تكون الآيات الربانية فى حقهم سبيلاً للترقى فى مراتب العلم بالله ، وتحقيق اليقين . ومثاله قوله تعالى :

{ وَفِى الأرْضِ آياتٌ لِلْمُوقنِين ـ ٥١/ الذاريات ٢٠ }

---

(٧٤) ـ حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن السيده عائشه رضى الله عنها .
انظر : الإمام السيوطى ، الجامع الصغير ، المرجع/ ٢٤ ، جزء/٢ ، ص ١١٧
انظر : المباركفورى ، تحفة الأحوذى ، المرجع/ ١٣، جزء/٩ ، ص ٣٢٥ ، حديث ٣٤٤٤

(٧٥) ـ هذه حقيقة عظيمة الأثر وبالغة الأهمية ، تتعلق بنظريتين الإيحاء الذاتى والاسبرناطيقا . وقد حام حول هاتين النظريتين فى موقعهم الإسلامى الشيخ محمد الغزالى فى كتابه " جدد حياتك " ـ دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٣/١٩٨٢ . والمفهوم أصله فى كتابات المحاسبى والغزالى . رضى الله عنهما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهنا الإشارة إلى زيادة العلم الإيمانى بشقيه : العلم بالله ، والعلم بقدرة الله وصنعته . فهؤلاء المؤمنين أهل إيمان وعلم ، قبل النظر فى الآيات وبعدها . وهذه زيادة فى العلم والإيمان ، كما قال تعالى لرسوله :

{ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ـ ٢٠/ طه١١٤}

(٧٨) وواضح أن هذا تذكر وتفكر . وينشأ منه حال من تجلى أنوار العلم الإلهى على مدركاتهم بمعانى القدرة والعظمة والجلال والعلو ، حتى يهتف القلب ، وينطق اللسان ..." سبحانك " ... فقنا عذاب النار ... فأنت الحكم القهار ، وأنت العلى الجبار ، وأنت العزيز الغفار ... ونحن العباد العبيد ، الأذله الخاشعين ، المسلمين لأمرك ، والمتصاغرين لجلالك وسطوتك، وهذا قوله تعالى شأنه :

{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ـ ٣٥/ فاطر ٢٨ }

وهذا ذكر لله نشأ عن ذكر وفكر . ويقود بذاته إلى ذكر وفكر . وهؤلاء من الذاكرين الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ومن المتفكرين فى أسمائه وصفاته وأفعاله . وإذا تطابقت أحوالهم السلوكية مع أحوالهم القلبية (بما فى ذلك الفكرية)كانوا هم الصديقون وهم أهل الحكمة والمقامات العلى .

(٧٩) وخاصية التفكر هذه ـ والتى أساسها الذكر والتذكر ـ والتى تقود إلى الله تعالى ليس فقط مأمور بأكتسابها والمداومة عليها وإنما معاقب على تركها بالعذاب فى النار . يقول ـ الحق ـ جل جلاله :

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا : أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ : أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ـ ٧/ الأعراف ١٧٩}

ومن هذه الآية يستدل على الحقائق التالية :

(أ)ـ أن الله تعالى جعل لعباده الحواس من قلب (عقل) وأعين وآذان لاستعمالها فهى أولا مصادر للإدراك والعلم كما قال تعالى :

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ـ ١٦/ النحل ٧٨ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهى مصادر للعلم التى وهبها الله لنا لاستعمالها فى اكتساب العلم الذى خرجنا من أمهاتنا بدونه .

(ب) ـ ومن الآيتين يستقيم معنى آخر : هو أن استعمال هذه المنح فى معرفة الله التى هى طريقنا إليه هو أيضا شكرها .ومن لم يشكر الله على نعمه وذلك باستعمال تلك النعم على الوجه الذى يرضاه ، فقد كفر النعمة . فكفر النعمة عدم استعمالها فيما هو شكر لله تعالى، وهذا أسوأ من استعمالها فى معصيته .

(٨٠) (ج) ـ والله تعالى يحاسبنا على قدر عطائه لنا : قال تعالى:

{ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلاّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ـ ٢/ البقرة ٢٨٦ }

وإذا كان ـ تعالى أمره ـ لا يكلفنا إلا بما فى وسعنا ومن ثم لن يحاسبنا إلا بما فى وسعنا : فهو أيضا بنفس المفهوم ، سيحاسبنا على ما فى وسعنا ولم نفعله . فإذا أعطاك الله عقلا نابها ، فسيحاسبك ليس فقط على استعمالك لهذا العقل فى سبيله ومرضاته ، وإنما أيضا على مدى استعمالك له وكيفية ذلك . إذ ليس حسابك عليه كحساب ذلك الذى أعطاه المولى عقلا خاملا أو معيبا .

وكذلك الحساب على نعمة البصر ونعمة السمع مثلا : هل استعملتها فى معرفة الله وتفهم حكمته فى الخلق ، وفى مرضاته ؟ أم استعملتها فى معصيته ، بالنظر إلى ماحرم ، والإستماع إلى مالا يصح ... قال تعالى :

{ لاَتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعنَا به أزْوَاجاً منْهُمْ ولاتَحْزَنْ عَلَيْهِم واخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤْمِنِينَ ـ ١٥/ الحجر ٨٨ }

{ وَإذا رأيْتَ الذينَ يَخُوضُونَ في آياتنا فَأعْرِضْ عَنهُم حتَّى يَخُوضُوا فى حَديث غَيْره ، وإمّا يُنسِّينَّكَ الشيطانُ فلا تقعُدْ بعدَ الذكرى مع القومِ الظالمين ـ ٦/الأنعام ٦٨ }

{ الذينَ يستمعُونَ القول فَيتَّبعُون أحْسَنَهُ أولئكَ الذينَ هَدَاهُمْ اللهُ وأولئكَ هُمْ أولوا الألبَابِ ـ ٣٩/ الزمر ١٨ }

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك الأمر بالنسبة للنعم الأخرى ، كالمال ، والصحة ... وما إلى ذلك، فالمحاسبة ليست فقط على : هل استعملت النعمة أم لا ؟ وإنما المحاسبة أيضا على على كيفية استعمالك للنعمة ، كما قال :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ - ١٠/ يونس ١٤)

(٨١) ومن ثم فالأنعام التى لم تمنح هذه النعم لاتحاسب على معرفة الله التى يتوصل إليه باستعمال هذه النعم : لأنها خارجة عن نطاق التكليف بالنسبة لها .

ووجود هذه النعم عندنا يعنى فرصة الوصول إلى آفاق لم تدرك لغيرنا من المخلوقات ، وتضيع هذه الفرصة بعدم استعمال النعم ، أى عدم شكرها ، يجعلنا فى أحط من موقف الأنعام التى فعلت ما كلفت به . وفشلنا نحن فى ذلك .

وكل هذه النعم تقود إلى فكر وذكر للحقيقة الأصلية الله : ووجوده وصفاته وأفعاله ، وهديه الذى تكرم به علينا ليرشدنا السبيل إليه عبر مرضاته ورحمته وفضله .

ولهذا تقول الآية :(**أولئك كالأنعام**) أى تساوت نفوسهم بالأنعام التى لم تعط هذه النعم : نعمة الذكر والفكر بالقلب والعقل .

ويستطرد المعنى (**بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون**) ، إذ هم أعطوا النعمة ولم يستعملوها فيما خلقها الله لهم . فهم غافلون ، لايذكرون ولا يتفكرون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

من آفاق الآيات فى الذكـــر

ـ المعنى الأول : الشكر
ـ المعنى الثانى : أذكرونى أذكركم
عالم المثال
ذكر الله وأولياء الله
شرف الذاكرين
نور الذاكريـــن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨٢) والحق أن الله تعالى ـ له فى كل آية من آيات الكتاب المبين أسرار ومفاهيم تربط الآية الواحدة بعدد عظيم من الآيات القرآنية ، وبعدد عظيم من أحاديث النبى الكريم ، صلى الله عليه وسلم .
ونحن لا نستطيع فى مثل هذا الكتيب الذى قصد منه تقديم عجالة عن ذكر الله ، تكون مدخلا للذاكرين ، أن نطوف مع القارىء على آيات القرآن مستعرضين روابطها بذكر الله والتفكر فيه . ولكننا مع ذلك سنعطى مثالا مختصراً ، لبعض ما فى آيات الذكر الحكيم ، من معان وبيانات ، وتلميحات وإشارات ، وأنوار وفيوضات .

وقد اخترنا لذلك قولين : الأول ، وهو مادة هذا الفصل ، قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

{ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ـ ٣٣/الأحزاب ٤١ ، ٤٤ }

(٨٣) أقول ، بسم الله وحوله وقوته :

اولا :

صيغة الأمر والتوجيه ، واضحة فى الآيات ، لا التباس فيها . وقد استدل منها بعض العلماء على الوجوب ، كما استدل من قوله : (أقيموا الصلاة) ، وقوله : (وآتوا الزكاة) على وجوب فعل الصلاة والزكاة .
والخطاب موجه إلى " الذين آمنوا " . وتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا قد يفهم منه أن الأمر بالذكر انما هو تكليف للمؤمنين وحدهم ومرتبط بإيمانهم . فيكون الذكر بذلك إما عنصراً من عناصر الايمان ، أو صفة من صفات المؤمنين .

(٨٤) ثانيا :

ثم يخصص المولى ـ عز شأنه ـ من الذكر التسبيح ، ويوجه العباد إلى أوقات بعينها : فى البكرة والأصيل .
والبكرة هو أول الضياء من النهار أى الصباح الباكر . والأصيل هومرحلة خفوت ضوء النهار أى بعد العصر إلى المغرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتسبيح تنزيه وتقديس ، وهو علامة التعظيم والاجلال المصحوبة بالتسليم والحيرة فى إدراك وتفهم أبعاد عظمته وقدرته وحكمته . وهى حالة تنشأ من تبين بصيص من الجلال الآلهى، والعجز عن إدراك مداه ومراده ومنتهاه : فيهتف القلب الواعى الذى دخله نور هذا التجلى ... " سبحان الله " فهو تعبير عن حال عبودية وصغار تجاه المقام الآلهى .

وإذا ظهرت أنوار هذا التجلى الآلهى على إدراك العبد ، غالبا ماتنشىء شعوراً بالامتنان لما أنعم به الله تعالى عليه : أى إذا رأى العبد ملكية الله فيه وفى الكون من حوله ورأى فضل الله عليه ، محيطاً به وشاملاً له ، كان التعبير " سبحان الله وبحمده" أو " سبحان الله والحمد لله " : وهذا هو التسبيح بحمده ، كقوله عز وعلا :

{ وتَوكَّلْ على الحيِّ الذى لايموتُ وسَبِّحْ بحمده ـ ٢٥/الفرقان ٥٨ }

وتحديد البكرة والأصيل ، أوقاتاً مستحبة للذكر والتسبيح ، يتفق مع الإشارة الى تعاقب النور والظلام ، والنهار والليل ، وقدرة الخلاق الحكيم فى التنظيم والإبداع . وأنه تعالى جعل هذا النظام الكونى لذكره وشكره . وفى ذلك قوله تعالى :

{ وهو الذى جَعَلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أراد أن يَذَّكَّرَ أو أراد شُكورا ـ ٢٥/الفرقان ٦٢ }

الذكر فى معنى الشكر

(٨٥) ثالثا :

أعقب الله الخاق العظيم الكريم ، الأمر بالذكر عموماً والتسبيح بكرة وأصيلا، ببيان حقيقة من أعظم حقائق الربوبية والألوهية : وهى أنه ـ جلا جلاله ـ يصلى علينا هو وملائكته ليخرجنا من الظلمات إلى النور .
وهنا لابد من وقفة طويلة ، إذ الآفاق فى هذه الآية بالغة السعة والرحابة . بداية نرى أن الآيات فى تعاقبها تدل على عدة معانى احتمالية :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعنى الأول :

إن هذا الذكر والتسبيح يتوجب علينا شكراً لله تعالى على صلاته علينا هو وملائكته رحمة بنا : إذ هو سبحانه يفيض علينا بالعطاءات والأنوار ، ويشملنا برحمته ، ويكلؤنا بعنايته وفضله .
والصلاة صلة ومعاملة : والصلة بين الغنى الكريم ، والفقير المحتاج إنما هى عطاء من جانب الغنى للفقير .
والصلة بين العليم والجاهل إنما هى تعليم من العليم للجاهل . وهى من الفقير والجاهل تجاه الغنى المعطى والعليم أيضا من الإمتنان والشكر . والصلة والمعاملة بين الرب القوى القادر ، والعبد الضعيف الخامل ، إنما هى عطاء قوة وامداد قدرة من الأعلى للأدنى .

وبذلك يكون المعنى :(اذكروه وسبحوه كثيرا شكرا له وعلى ما يفعله بكم : ألا وهو كونه يصلى عليكم ليخرجكم من الظلمات إلى النور وهذه رحمة منه تستوجب شكركم له بالذكر والتسبيح) .

والشكر عند غالبية علماء الإسلام ، نصف حال العبد مع ربه . اذ يرون أن العبد إما فى صبر وإما فى شكر . قال تعالى :

{ فأما الانسانُ إذا مَاابْتَلاهُ ربُّهُ فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فيقولُ رَبِّى أكْرَمَن ، وأما إذا مَاابتلاهُ فَقَدَرَ عليه رِزْقَهُ فيقولُ ربى أهانَن ـ ٨٩/الفجر ١٥ ، ١٦ }

(٨٦) والشكر كما بين ـ الشكور الكريم ـ يوجب المزيد .قال تعالى :

{ وإذْ تَأذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ولَئِنْ كفرتم إنَّ عذابى لَشَديد ـ ١٤/إبراهيمَ ٧ }

وقد كان الشكر سر عطاء الله وسبب فيضه العظيم على أنبيائه داود وسليمان عليهما السلام . فبعد أن بين سبحانه تعدد نعمه ، وعظم قدرها على نبييه الكريمين ، بين أن ذلك لأنهما يشكران ، قال تعالى :

{ اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْراً وقَليلٌ مِنْ عِبادِى الشَّكُور ـ٣٤/سبأ ١٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزيادة العطاء من الله للعبد ، جزاء له على شكره لربه ، أمر واضح من أنه سبحانه " الشكور " : الذى يشكر على ما يفعل له ، أو يقدم له : وان كان سبحانه الموفق لهذا الفعل من العبد .

ولكن المخجل أن العباد لا تشكر . قد يحمد بعضهم باللسان : ولكن الشكر الذى هو بالأفعال ، نادراً ما يقع مع الناس فالشكر هو أن تستعمل نعمة الله فى مرضاته والتقرب إليه ، وهذا يسمى شكر النعمة .
الغالب على حال الناس ، وياللأسف ، الفرح بالنعمة فيطغوا فى استعمالها على حدود الله ، وكأن الله تعالى أنعم بها عليهم ليعصوه بها .
ولذا فقوله تعالى فى آية سبأ أعلاه : { **وقليل من عبادى الشكور** } تقرير لحقيقة حال العباد المخجلة . وهى حماقة ما بعدها حماقة .

(٨٧) وعدم شكر العباد لربهم على نعمته ، انكار عملى منهم بأنه المعطى ، وأنه الذى بيده الأمر كله : وهو الذى ترجع إليه الأمور ويحمد فى كل الشئون .
والإنكار هو الكفر لأن كلمة " كَفَرَ " تعنى أنكر وغطى على أمر أى رفضه.
وعدم شكر العباد لربهم على نعمته إنكار عملى لعقيدتهم فى الله ، أو على أحسن الظنون نقصان فى الإيمان ولذلك يقول الحق تعالى شأنه :

{**ولئن شكرتم لأزيدنكم ولإن كفرتم إن عذابى لشديد** ـ١٤/ابراهيم٧}

فإذا شكر العبد ربه شكر الله تعالى للعبد بزيادة عطائه له لأنه تعالى شكور .
ويكون الشق الثانى للآية معناه : وإن لم تشكروا لى ـ وهذا كفر ـ فإن عذابى شديد .
ويؤكد ـ عز شأنه ـ معنى التقابل بين الشكر والكفر فى آيات مثل :

{ **إنا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفورا** ـ ٧٦/الإنسان ٣}

وقوله :

{ **لا يرضى لعباده الكفرَ ، وإن تشكروا يرضه لكم** ـ ٣٩/الزمر ٧}

وأهم النعم على الإطلاق نعمة الهدى والإيمان التى هى طريق معرفته سبحانه . وهى التى أشار اليها الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن يعقوب بن أسحاق بن ابراهيم عليهم ، وعلى نبينا ، صلاة الله وسلامه ، فيما رواه رب العزة :

{ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي : إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ : مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ : ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ـ ١٢/يوسف ٣٧، ٣٨ }

(٨٨) وإلى هذا المعنى ينصرف مفهوم الخبر عن السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

{ كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا } (٧٦)

وقد تبين ذلك أيضاً ، من نصيحته الجامعة لمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، التى جمع فيها بين الذكر والشكر والعبادة : قال :

{ يامعاذ قل اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك } (٧٧)

فالشكر على هداية الله لعباده ـ صلاته عليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ـ هو المفهوم الأول الذى يتبادر إلى الفهم من تتابع الآيات فى السياق . وبهذا المعنى يكون ذكره عموماً وتسبيحه بكرة وأصيلاً مسبباً للمزيد من صلاته وملائكته على العهد بفيض الأنوار والخيرات والبركات: وياله من شرف ، وياله من جزاء ، وياله من اله كريم رحيم شكور ودود .

---

(٧٦) ـ أخرجه الإمام البخارى ومسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها .
أنظر : الإمام النووى ، رياض الصالحين ، المرجع/٢٢ ، ص ٣٣٩
أنظر : بن حجر العسقلانى،فتح البارى ، المرجع/١ ،جزء/٨،مجلد/٨ ،ص٥٨٤ ، حديث رقم/ ٤٨٣٧
(٧٧) ـ أخرجه الحاكم وقال صحيح الاسناد ووافقه الإمام الذهبى على ذلك .
أنظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع/ ١٨ ، جزء/١ ، ص ٤٩٩

(٨٩) المعنى الرئيسى الثانى : الذى يظهر من تتابع الآيتين هو أن ذكر العبد لربه والتسبيح له بكرة وأصيلاً جزاؤه ، أن يصلى الله عليه وملائكته ليخرجه من الظلمات إلى النور كما أنه سبباً لذلك . وهذا أيضاً معنى صحيح لاغبار عليه .

وفى آيات الكتاب الحكيم وحديث النبى الصادق الأمين ما يفسره أجمل تفسير، ويفصل مداه وأبعاده ، إلى آفاق بالغة السمو . فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

{ أن ماتذكرون من جلال الله ، وتسبيحه وتحميده ، وتكبيره ، وتهليله يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يُذكِّرْنَ بصاحبهن : أفلا يحب أحدكم أن لايزال له عند الرحمن شىء يذكر به } (٧٨)

وهذا المعنى خطير إذا أخذ على ظاهره بلا تغيير أو تأويل يخرجه عن حدود الألفاظ . لأنه يعنى أن كلمات الذكر ، لها وجود بذاتها ، وأن وجودها الكونى حقيقة فى عوالم السموات ، وأنها تصعد خلال هذه العوالم حتى عرش الرحمن ـ جل شأنه وعلا مقامه ـ ولها صوت مرتبط بالصوت البشرى الذى أخرجها وما فيه من طاقه ، وإخلاص ، وحب ، وتشوق وعبودية .

فهل هذا مجاز ؟ أم رمز ؟ أم حقيقة ؟
أقول هذا حق ، وهذه حقيقة ، مهما بلغت غرابتها . ومهما كان وقعها عليك . فقد قال الحق ـ عز وعلا :

{ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالحُ يَرْفَعُه ـ ٣٥/فاطر . ١}

وقال جلا جلاله :

{كَلِمَةً طَيِّبَةً كشَجَرَةٍ طيبةٍ أَصْلُهَا ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء ـ١٤/إبراهيم }

(٧٨) ـ أخرجه الإمام أحمد وابن أبى شيبة والطبرانى، والحكيم والترمذى ، والحاكم فى المستدرك وقال صحيح عن النعمان بن بشير ، رضى الله تعالى عنهم ، وصححه الإمام السيوطى والإمام الذهبى فى تلخيص المستدرك ، وقال صحيح على شرط مسلم .
أنظر : بن حسام الدين الهندى ، المرجع/٢٨، جزء/١، ص ٤٣١ ، الحديثين رقم/١٨٦٢ـ ١٨٦٣
أنظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع/١٨ ، جزء/١ ، ص ٥٠٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالم المثال :

(٩٠) ومن الحقائق التي ثبتت عند العلماء ، من آيات الكتاب ومن سنة خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه ، ولا يدرى بها غالبية الناس ما يسمى " بعالم المثال " (٧٩)
فقد تظاهرت الآيات والأحاديث على وجود الأعمال والأفكار المعنوية والأشكال المادية في عالم غير عالم الأرض بصوره إما على مثال صورتها على الأرض أو تختلف عنها . قال تعالى :

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ـ ٣/آل عمران ٣٠ }

قال تعالى :

{ وَوَجَدُوا ماعَمِلُوا حاضِراً ولايَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ـ ١٨/الكهف ٤٩ }

(٩١) وفصلت السنة هذه المعاني الإجمالية خير بيان وتفصيل :

(١) ـ عنه صلى الله عليه وسلم :

{ تعلموا الزهراوين " البقرة وآل عمران " فإنهما تجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما ، تعلموا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة } (٨٠)

(٢) ـ { إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك } (٨١)

---

(٧٩) ـ انظر : شاه ولي الله الدهلوي ، حجة الله البالغة ، المرجع/٥٢ ، جزء/١ ، ص ١٣ ـ ١٤

(٨٠) ـ أخرجه الطبراني عن بن عباس ، والإمام مسلم .
انظر : بن حسام الدين الهندي، الكنز، المرجع/٢٨،جزء/١،ص.٥٧ ـ٥٧١،حديث رقم/٢٥٧٧،٢٥٧٨
انظر : النووي ، صحيح مسلم ، المرجع/١٢ ، جزء/٦ ، ص ٩٠
انظر : بن الديبع الشيباني ، تيسير الوصول ، المرجع/٢٧ ، جزء/١ ، ص ٩٠

(٨١) ـ أخرجه الإمام أحمد وابن عدي ، وابن حبان ، والحاكم ، عن أبي هريرة .
انظر : بن حسام الدين الهندي ، الكنز ، المرجع / ، جزء/١ ، ص ٥٨٣ ، حديث رقم/٢٦٤٥
انظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع/ ٢٨ ، جزء/١ ، ص ٥٦٥

(٣) ـ { إن المؤمن إذا كان فى قُبُل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس ...ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت . فيقول أنا عملك الصالح ...وأما الكافر فإنه إذا كان فى قبل الإخرة وانقطاع من الدنيا...ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح، قبيح الثياب ، فيقول أبشر بسخط الله وبعذاب أليم مقيم . فيقول: بشرك الله بشر ، من أنت ؟ فيقول أنا عملك الخبيث } (٨٢)

(٤) ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ والذى نفسى بيده إن الميت إذا وضع فى قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون ، فإذا كان مؤمناً جاءت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله ، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس قبل رجليه ، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ليس من قبلى مدخل ، فيؤتى من قبل يمينه فتقول الزكاة : ليس من قبلى مدخل ، فيؤتى من قبل شماله فيقول الصوم ليس من قبلى مدخل ، فيؤتى من قبل رجليه ، فيقول فعل الخيرات وما يليها من المعروف والإحسان إلى الناس : ليس من قبلنا مدخل .... الحديث } (٨٣)

(٥) ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

{ خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم ، فأخذت بحقو

---

(٨٢) ـ أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين ، وضعفه ابن حبان ورواه النسائى ، وابن ماجه مختصراً . ورواته عند أبو داود والنسائى ثقات وهم رواة الصحيح ، وصححه الذهبى فى تلخيص المستدرك .

انظر : الغزالى ، سكرات الموت ، المرجع/٥٩ ، ص ١٨١

(٨٣) ـ رواه الطبرانى فى الأوسط وحسن إسناده فى مجمع الزوائد . وقد رواه غير واحد عن محمد بن عمرو ، فعند الحاكم فى المستدرك عن سعيد بن عامر عنه ، ثم رواه عن محمد وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، ورواه ابن حبان رقم ٧٨٧ ص ١٩٧ من طريق معتمر بن سليمان عنه ، والبيهقى فى الشعب ، وهناد فى الزهد ، وابن جرير فى تفسيره .

انظر : الحاكم ، المستدرك ، المرجع/ ١٨ ، جزء/١ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرحمن ، فقال له : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين ، أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب ؟ قال فذاك ، قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم } {٨٤}

(٦) ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ يُجَاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كَبْشٌ أملحُ (زاد أبو كريب فيوقفُ بين الجنة والنار وأتفقا فى باقى الحديث) فَيُقَالُ يا أهلَ الجنة هل تَعرفُونَ هذا فَيَشْرئِبُّونَ وينظُرون ويقولونَ نعم هذا الموتَ ، قال ويُقَالُ ياأهل النار هل تَعرفون هذا قال فيَشْرَئِبُّون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، قال فَيُؤْمَرُ به فَيُذْبَح ، قال ثم يُقَال يا أهل الجنة خلود فلا مَوْت ويا أهل النار خلود فلا موتْ ، ثم قرأ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَأَنْذِرهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِىَ الأمرُ وهُمْ فى غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يؤمنُون ، وأشار بيده إلى الدنيا } {٨٥}

(٧) ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ أنه عُرِضَ على كلُّ شىءٍ تُوعَدُونَهُ فَعرضَت على الجنة حتى لو تناولتُ منها قِطْفاً أخذتُه أو قال تناولتُ منها قطفاً فَقَصُرَتْ يدى عنه وعُرِضَت على النار فرأيتُ فيها امرأةً من بنى إسرائيل تُعَذَّبُ فى هرةٍ لها ربطتها فَلَمْ تُطعِمْها ولم تَدَعْها تأكلُ من خَشَاشِ الأرضِ } {٨٦}

{٨٤} ــ أخرجه البخارى واللفظ له ومسلم والنسائى .

انظر : ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى ، المرجع/١١ ، جزء/٨ ، ص ٥٧٩ ــ ٥٨٠ .

انظر : الإمام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع/ ١٢ ، جزء/١٦ ، ص ١١٢

انظر : الأحاديث القدسية ، المرجع/ ٢٠ ، جزء/١ ، ص ١١٦

{٨٥} ــ أخرجه الامام مسلم ، والترمذى عن أبى سعيد ، والامام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

انظر : الامام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع/١٢ ، جزء/١٧ ، ص ١٨٤ - ١٨٥

انظر : الامام النبهانى ، الفتح الكبير ، المرجع/ ، جزء/٣ ، ص ٤٠٧

{٨٦} ــ رواه الامام مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه . (جزء من حديث)

انظر: الامام النووى ، صحيح مسلم ، المرجع/ ، جزء/٦ ، ص ٢٠٧

(٩٢) فيعلم مما سبق أن المؤمن فى قبره يجد " مجموع أعماله " تمثلت له فى صورة ذلك المخلوق الجميل الصوره ، الطيب الرائحة والكافر يجد عكس ذلك . ومجموع أعمال الإنسان تشمل أقوال باللسان وأفعال بالجسد وأحوال فى القلب .

ولذا علم بالضرورة أن كل مايحدث من الإنسان ، مادياً كان أم معنوياً، إنما له كينونه فى عالم آخر غير هذا العالم المادى ، سماه بعض أهل العلم " عالم المثال " ، حتى أن الصيام والصلاة والصدقة ... ، لها وجود تجادل عن صاحبها الى الجنة .
وسور القرآن : البقرة وآل عمران ، والملك ، تتمثل فى صور وأشكال ، ولها وجود فعلى فى ذلك العالم .
وان كان غير معلوم على وجه التحديد ، سر العلاقة بين السورة وشكلها التى تتمثل فيه : اذ العلم فى هذه الأمور لا يكون إلا اخباراً من الله أو رسوله فليس للعقل إليها من سبيل ، ولا يجوز فيها الظن والتخمين .

ومما يؤكد أن المعنويات لها مثل هذا الوجود ماورد فى أمر الرحم . فهى صلة معنوية بين أفراد ولكنها فى قول النبى صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة ، جاءت ولها كيان وخاطبت ربها وأجابها وأعطاها وتكرم عليها .
ومثالها أيضاً الموت الذى هو معنى معنوى فى توقف سريان الحياة من مستوى، واستمرارها على مستوى آخر . فالموت حال الانتقال من حياة الدنيا المادية الأرضية إلى حياة البرزخ ... ومابعدها .
ويتأكد هذا بالنظر إلى الصلاة والزكاة والصيام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإحسان وهى سلوكيات مرتبطة بالالتزام بالحق كما بينه الله ورسوله . فحتى هذه الخاصيات السلوكية ، أصبحت حقيقة وجودية كائنة كمخلوق فى عالم آخر ... " عالم المثال " .

(٩٣) وفى صحيح السنة عدد ضخم من الأحاديث الصحيحة [٨٧] كلها تثبت وتشير إلى ـ وجود هذا العالم ـ ولا يهم بعد ذلك أن تكون تسميته : " عالم المثال " أو غيره من التسميات .
إنما الذى يثبت من ذلك أن كلمات الذكر لها وجود فى ذلك العالم وتصعد فيه إلى مقام العرش الرحمانى يذكرن بصاحبهن .

---

[٨٧] ـ أورد شاه ولى الله الدهلوى ثلاثين حديثاً فى هذا المعنى .
انظر : حجة الله البالغة ، المرجع/ ٥٢ ، ص ١٣ـ١٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلمات الذكر كلمات من القرآن ، وتصعد فى مضمون الآيات والسور حين تلاوة القرآن . ولا منطق فى استبعاد صعودها بذاتها ، إن لم تكن ضمن سورة وآية ، فقد رأينا جميع الأعمال لها وجود وجميع الأقوال لها وجود فى ذلك العالم .

وإذا كانت كلمات الذكر قد صعدت حتى عرش بارئها سبحانه ، (يذكرن بصاحبهن) كما يقول الحديث ، فإن التساؤل الذى لا بد منه هنا هو : يذكرن من !!!
إن الله ـ جل شأنه وتعالى أمره ـ لا ينسى : حاش لله من ذلك ....

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ـ ١٩/ مريم ٦٤ }

والإجابة : لابد أنهن يذكرن " عالم ماحول العرش " . وفيه الملائكة العظام حملة العرش وملائكة الرحمن الكبرى الملتفه بعرش الرحمن ، والدائرة فى فلكه . ألم تسمع قول الله الحق :

{ الذين يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤمنون بِهِ ، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْتَ كُلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وَقِهِمْ عذابَ الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التى وَعَدْتَهُمْ ، ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وَقِهِمُ السيئات ، ومَنْ تَقِ السيئات يومئذٍ فقد رَحِمْتَهُ وذلك هُوَ الفوزُ العظيم ـ ٤٠/غافر ٧ ، ٩ }

وبذلك تتكون رابطة محكمة فى نظام الله ، بين ذكر العبد لربه وبين صلاة الله عليه وصلاة ملائكته عليه وهى الجزاء على ذكره لربه .
فلعل صلاة الملائكة المقصودة فى آية سورة الأحزاب التى نعلق عليها ، هى هذا الموقف بالإستغفار للذين آمنوا ، والدعاء لهم ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٩٤) ولا شك فى أنه لا يتصور قيام الملائكة بهذا الاستغفار للعباد الذين آمنوا ، والدعاء لهم ، الا بتوجيه الله ومشيئته وارادته . بل لا يتصور أن يحدث شيء فى الملك والملكوت الا بمشيئة الله وأمره .
ولذا نقول : أن الله العليم ، المطلع على خفيات السرائر ، والعليم بمكونات الضمائر ، الذى وسع كل شيء رحمة وعلما ، وجه ملائكته وأمرهم بالصلاة أى الإستغفار والدعاء لهم (على الذاكرين) كما فى الآية .
وهذا الفعل من الله رضى ومحبة لذاكريه المنشغلين به ، العابدين له . وأمره لملائكته بالاستغفار والدعاء ، أى بالصلاة عليهم إنما هو تنزل للرحمات على الذاكرين عبر السموات العلى .

(٩٥) فهل فى آيات الكتاب ، وصحيح السنة ، ما يؤيد ويثبت قولنا هذا ، ويبينه ؟! نعم ..... فى الحديث القدسى الشهير ، يقول الله تعالى:

{ **من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب الى عبدى بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته** } (٨٨)

فالذى يتقرب به المؤمن الى ربه ـ فى حديث البخارى هذا ـ هو النوافل: ونفل الشهادتين الذكر : وفى نفل جميع الأركان يبرز الذكر فى المقام الأول .
وهو جماع العبادات كلها كما استبان لنا فى الفصل الثانى .

---

(٨٨) ـ أخرجه الإمام البخارى رضى الله عنه .
أنظر : الإمام النووى ، الأربعين النووية ، المرجع/٢١ ، الحديث الثامن والثلاثين . ص٧٨
أنظر : بن حجر العسقلانى، فتح البارى ، المرجع/١١، جزء/١١، ص . ٣٤ـ ٣٤١، حديث رقم/٦٥٠٢